السيرة الذاتية
فى
كتاب (الاعتبار) لأسامة بن منقذ

(دراسة أدبية ونقدية فى الأبعاد الفكرية والفنية)

دكتور

محمد عبد الله عباس

السيرة الذاتية
فى
كتاب (الاعتبار) لأسامة بن منقذ
(دراسة أدبية ونقدية فى الأبعاد الفكرية والفنية)

دكتور

محمد عبد الله عباس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد - ﷺ - النبى العربى المبين، وعلى آله وصحبه والتابعين.

وبعد:

فتشكل السيره الذاتية باباً كبيراً فى الأدب العربى القديم. وهى بأمس الحاجة إلى جمع ورصد وتصنيف وتبويب وتحليل ونقد. ومعظم تلك السير متناثر فى مقدمات أمهات الكتب الكبرى، وبعضها ورد فى كتب مستقلة بذاتها كالاعتبار لأسامة بن منقذ، فقد قدم فيه سيرته وتجربته الذاتية التى تكشف عن تنامى الشخصية العربية وبنائها فى عصر الحروب الصليبية، وهو فى جملته يصور حياته ونشأته واختباراته السياسية والحربية، وشجاعته فى القتال وفروسيته ورحلاته وتنقلاته، وفيه رصد لعادات المجتمع العربى آنذاك وعادات الإفرنج وأحوالهم فى السلم والحرب، وفيه مقارنة دقيقة بين حضارة الشرق وحضارة الغرب فى الأصل والجوهر، ودراسة لطبائع الناس مسلمين

وصليبيين، وجمع فيها بين التحرى الصادق لما سرده من حوادث تاريخية والإمتاع القصصى فى الطريقة والعرض والأداء.

وقد اتخذ طريقة الترجمة الشخصية التى هى أقرب إلى واقعه الذى عاشه، وتكاد تكون كاملة ودقيقة مع التركيز على رسم البيئة والمجتمع ونماذجه البشرية وطرائقه المعيشية والحربية والسياسية والاجتماعية. وهذه الدراسة ترصد ملامح السيرة الذاتية فى (الاعتبار) بأبعادها الفكرية والفنية أرجو أن أكون قد وفقت فى دراستها وتحليلها.

والله الموفق

د/ محمد عبد الله عباس

التمهيد
التعريف بصاحب الاعتبار

أسامة بن منقذ (٤٨٨هـ - ٥٨٤هـ - ١٠٩٥م - ١١٨٨م)

هو: أسامة بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر بن منقذ الكنانى الكلبى الشيزرى، كان يكنى أبا المظفر، وأبا شامة، ويلقب مؤيد الدولة ومجد الدولة، من أكابر بنى منقذ أصحاب قلعة شيزر (بقرب حماة، يسميها الصليبيون sizarar)، من العلماء الشجعان والأمراء المشاهير، كان عمره تاريخاً مستقلاً وحده.

ولد فى شيزر يوم الأحد في ٢٧ جمادى الآخرة سنة (٤٨٨هـ - ١٠٩٥م) قبل حملة الإفرنج (الصليبين) الأولى على الشام بأربعة أعوام حيث دخل الصليبيون بلاد الشام سنة ٤٩٢هـ، ونشأ في شيزر، وشارك أهله فى الدفاع عن حصنهم، وفى قتال الإفرنج، وكان شجاعاً بطلاً مغواراً، ولامه أهله برغم التوفيق الذى كان يصيبه فى قتال الإفرنج، وقد ذهب إلى الموصل ودخل في جيش نور الدين زنكى ثم عاد إلى شيزر بعد بضع سنين وكانت الإمارة لعمه عز الدين، ويبدو أنه ظل برغم انقضاء سنى الشباب على حماسته وشجاعته، فنفاه عمه، فجاء إلى دمشق وسكن الغوطة، ثم نال حظوة عند الأتابك شهاب الدين محمود ابن تاج الملك بورى، وفى سنة ٥٣٨هـ - ١١٤٤م تعرض فى دمشق لعدد من المكائد، فانتقل إلى مصر، وسنحت له الفرصة فاشترك فى الحملة على عسقلان جنوب حيفا بفلسطين سنة ٥٤٤هـ - ١١٥٠م، ثم عاد وجه الحياة يتجهم له فى مصر، فرجع إلى دمشق سنة ٥٤٩هـ وكانت الشام قد صارت فى ملك نور الدين محمود، وفى سنة ٥٥٥هـ - ١١٦٠م ذهب إلى الحج، وبعد عامين اشترك مع نور الدين في الحملة التى استرد فيها نور الدين مدينة (حارم) قرب حلب، ثم اتفق له ما دعاه إلى مغادرة

دمشق، فذهب إلى حصن كيفا شمال العراق ونزل على صاحبها قرة أرسلان، وبقى هناك عشر سنين عظُم فى أثنائها نشاطه الأدبى، وفى سنة ٥٧٠هـ - ١١٧٤م دعاه صلاح الدين الأيوبى إلى دمشق فأجابه وقد تجاوز الثمانيين، وظل بها حتى توفى فى ١٣ رمضان ٥٨٤هـ - ١١٨٨م، ودفن في جبل قاسيون.

وأسامة فارس شاعر بارع ومؤلف قدير ذو ثقافة واسعة ومعرفة بفنون الحرب، وله نثر أنيق فى الترسل متين التأليف وشعره كثير مطبوع جيد، له من الكتب غير (الاعتبار) : ديوان شعر أسامة ابن منقذ، كتاب لباب الآداب، كتاب العصا، كتاب البديع، كتاب المنازل والديار، مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، تاريخ القلاع والحصون، أخبار النساء، النوم والأحلام، الشيب والشباب، ذيل يتيمة الدهر. التأسى والتسلى[1].

سبب تسمية الكتاب بالاعتبار:

قصد أسامة بن منقذ من كتابه موضوع العظة والاعتبار، وهذا هو الذى جعله يختار (الاعتبار) يقول: "فلا يظن ظان أن الموت يقدمه ركوب الخطر، ولا يؤخره شدة الحذر، ففى بقائى أوضح معتبر، فكم لاقيت من الأهوال وتقحمت المخاوف والأخطار، ولاقيت الفرسان وقتلت الأسود، وضُربت بالسيوف وطُعنت بالرماح وجُرحت بالسهام والجروخ وأنا فى الأجل فى حصن حصين إلى أن بلغت التسعين، فرأيت الصحة والبقاء، فأعقبت النجاة من تلك الأهوال ما هو أصعب من القتل والقتال، وكان الهلاك فى كنه الجيش أسهل من تكاليف

(١) ينظر فى ذلك البداية والنهاية جـ١٦/٦٠٤، ٦٠٥، والأعلام للزركلى جـ١/٢٩١، وتاريخ الأدب العربى عمر فروخ: ٣٩٣ إلى ٣٩٧.

العيش. استرجعت منى الأيام بطول الحياة سائر محبوب اللذات وشاب الكدر النكد صفو العيش الرغد"[1].

والمدلول اللغوى لكلمة الاعتبار يتفق مع مقصد الكتاب "فالعبْرةُ: العَجَبُ، واعتبر منه تعجب، وفى التنزيل ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾[2]، والعِبَرُ: جمع عِبْرة وهى كالموعظة مما يتعظ به الإنسان ويعمل به ويعتبر ليستدل به على غيره، والعِبْرَةُ الاعتبار بما مضى، وقيل العبرة الاسم من الاعتبار، والعَبَرُ الاعتبار، والعرب تقول: اللهم اجعلنا ممن يَعْبَرُ الدنيا ولا يَعْبُرُها، أى ممن يعتبر بها ولا يموت سريعاً وحتى يرضيك بالطاعة"[3].

أهمية كتاب الاعتبار:

تأتى أهمية كتاب الاعتبار من عدة نواح:

- إن الحوادث التى سجلها أسامة مما شاهده بنفسه، وشارك فى وقائعها، بينما نقل المؤرخون هذه الحوادث التى لم يعاصروها من وثائق تاريخية مكتوبة أو روايات مسموعة[4].
- يعد الكتاب أهم وثيقة تاريخية عن تاريخ الحروب الصليبية. والعلاقات بين الشرق والغرب فى القرن السادس الهجرى.
- يعد سجلاً حافلاً بالعادات الاجتماعية للمجتمع الإسلامى فى عصر من عصور ازدهار الحضارة الإسلامية.
- يعد ترجمة ذاتية صادقة لصاحبه ترجمها لنفسه ممزوجة بواقع مجتمعه الحربى والسياسى.

---

(١) الاعتبار: ١٨٢.
(٢) سورة الحشر، آية: ٢.
(٣) اللسان جـ٤ ص ٢٧٨٣.
(٤) انظر الاعتبار: ٢٤.

- اهتمام المؤرخين المسلمين به، فمنهم من ذكر أنه امتلك نسخة منه كالذهبى، ومنهم من نقل منه حرفياً كأبى شامة فى كتاب: الروضتين، وابن واصل فى كتاب: مفرج الكروب، والمقريزى فى كتابيه: اتعاظ الحنفا والمقفى، ومنهم من اقتبس منه مباشرة أو بالرواية كابن النديم في كتابيه: بغية الطلب وزبدة الحلب، وابن شداد في الأعلاق الخطيرة، ومنهم من ذكر اقتباسه صراحة ومنهم من أغفل ذكره وعزاه إلى أسامة[١].
- اهتمام المستعربين ومؤرخى الحروب الصليبية به فقد تُرجم من العربية إلى الإنجليزية والألمانية والروسية والدانماركية والبولندية والفرنسية، وكان ديرنبورج قد حققه ونشره لأول مرة في ليدن سنة ١٨٨٤م، وترجمه فليب حتى اللبنانى الأصلى إلى الإنجليزية في نيويورك سنة ١٩٢٧م[٢].
- وأخيراً قد قيل عنه إن كتاب الاعتبار: "صورة لعصر يكاد يتمثل فى شخص ، وشخص يكاد يتمثل فى عصر"[٣].

أهداف كتاب الاعتبار وغاياته:

كاتب السيرة الذاتية لا يكتب سيرته بلا غاية، فهناك العديد من الأسباب تجعله يسجل سيرته، وإذا رجعنا إلى ابن منقذ فإن أصدق غاية عنده ما نجدها بقلمه، فهو يحددها من كتابته لسيرته، فقد أراد منها أن ينبه السلطان صلاح الدين الأيوبى – رحمه الله – إلى أن "الموت لن يقدمه ركوب الخطر ولا يؤخره شدة الحذر، وأن العمر موقت لا يتقدم ولا يتأخر، وأن القلوب لو صفت من كدر الذنوب

(١) انظر الاعتبار: ١٦.
(٢) المرجع السابق : ١٦.
(٣) الأدب في بلاد الشام – عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك د/عمر موسى باشا ص: ٢٩٧.

فوصلت إلى عالم الغيوب علمت أن ركوب أخطار الحرب لا ينقص مدة الأجل المكتوب"[1]. وأن جهاده للإفرنج ومقاومته إياهم وركوبه الأخطار فى إجلائهم لن يقدم أجله ولن يؤخره؛ لأن النصر فى الحرب من الله تبارك وتعالى لا بترتيب ولا تدبير ولا بكثرة نفير ولا نصير، وهذا الموضوع هو بعينه الذى أراده في كل كتابه، وقصد إلى تبيانه. ليستثير عزم صلاح الدين حتى يُجد فى جهاد الإفرنج[2].

وما سبق يرسى هدفاً جليلاً من أهداف سيرته فى الاعتبار، هو أنه لا يجب أن نعجز أمام الغازى، وأن كثرة العتاد والعدد ليست هى السبب الحقيقى فى النصر عليه، بل التوكل على الله وإخلاص النية. واليقين بأن النصر من عند الله، وأن حربه لا يقدم ولا يؤخر عمرا. والعجز وحساب الحسابات الدنيوية من خوف الموت وغيره يؤدى إلى الهزيمة والاندحار، والنصر مؤنته الترابط بين البلاد والعباد والتفكك يؤدى آخر الأمر إلى الهزائم والخزى.

إذاً فقد كتب أسامة كتابه أو أملاه بعد أن جاوز التسعين من عمره وهو فى دمشق في ظل البطل صلاح الدين الأيوبى، ومن خلال قراءته يمكن أن نستنتج أهم أهدافه وغاياته بجانب ما سبق فى الآتى:

- استعادة أيام الصبا والشباب والشيخوخة والكبر وفى ذلك تسجيل لنقاط الضعف والقوة فى الحياة والاستفادة منها، وأخذ العبرة والعظة.
- إفادة أبناء العروبة والإسلام بالخبرة الطويلة فى الحياة وشئون الفروسية، وقتال الإفرنج.
- إلقاء الضوء على أحداث عصره المليئة بتربص الإفرنج بالعرب.

---

(١) الاعتبار: ١٨٠، ١٨٢ بتصرف.
(٢) المرجع السابق: ٢٠.

- إلقاء الضوء على حياة الناس العامة والخاصة في بلاد الشام والعراق ومصر فى وقت ضعف المسلمون فيه أمام حشود الروم، وظهور بقية مخلصة منهم تحت راية صلاح الدين.
- إلقاء الضوء على المجتمع العربى فى المنطقة العربية ما بين دمشق ومصر وتصوير العادات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والشخصية.
- تصوير جوانب كثيرة من أحداث الحروب الصليبية.
- تحذير المسلمين والعرب من الإفرنج في مستقبل حياتهم.
- تصوير العديد من النوادر والطرائف والأعاجيب التى انتشرت فى المجتمع العربى والإفرنجى فى هذه الحقبة.
- تصوير القيم والأخلاق الحسنة والقبيحة عند العرب والإفرنج.
- إلقاء الضوء على غرائز الحيوان والطير المرتبطة بحياة الإنسان فى السلم والحرب.
- إلقاء الضوء على الحضارة الإسلامية التى بهرت الإفرنج فى هذه الفترة وكانت خير معلم لهم.
- تصوير صراع الملوك والوزراء في الإمارات العربية بما من شأنه أن يزعزع الحياة السياسية. وأن ينزع الهيبة من صدر عدوهم فى وقت هم فيه بحاجة إلى الاعتصام بحبل الله.

فلسفة كتاب الاعتبار:

وفلسفة أسامة فى سيرته لا تعنى أن يرمى الإنسان بنفسه فى التهلكة، فهذا مرفوض شرعاً وعقلاً، وهو يعرف ذلك، أما إذا تعلق الأمر بقتال الغزاة للمسلمين، فإن حربهم لا يقدم أجلاً ولا يؤخره، والمخاطر التى يتعرض لها المسلم فى الدفاع عن دينه وأرضه وعرضه لا صلة لها بالآجال، فهى مكتوبة، فهو يثبت فى نفوس المسلمين ما قررته الآيات الكريمة، قال تعالى: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ

كِتَابٌ ﴾[1]، ﴿ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ﴾[2]، ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾[3].

وقد قصد أن يعلى صوته بهذه الصيحة فى وقت بدأت فيه النخوة العربية تتراجع أمام حشود الإفرنج.

أقسام الكتاب:

كتاب الاعتبار يقع فى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: تحدث فيه أسامة عن قصة حياته، وتجاربه الشخصية والحروب التى شارك فيها، وأسفاره بين الشام ومصر والعراق، ويمكن أن نضع لهذا القسم عنواناً هو: (حروب وأسفار) إذ نجد الحديث عن الحوادث التالية:

معركة قنسرين، محاصرة الروم لشيزر، زيارة أسامة دمشق ومصر، وفى زيارته للأخيرة نجد هذه الأحداث التى يرويها: ثورة في الجيش المصرى، خروج الوزير ابن السلار على الظافر، الخليفة يكيد لوزيره الجديد، أسامة فى مهمة حربية لدى نورالدين محمود، موقعة مع الإفرنج في عسقلان وأخرى في بيت جبريل من بلاد فلسطين، عباس يتولى الوزارة فى مصر،الوزير يغتال الخليفة الفاطمى، عباس يقمع الثورة، عباس يفر إلى الشام، أسامة يخرج من مصر ويجرح، عباس يقتله الإفرنج، مخاطر وادى موسى، عدم الاتعاظ بنكبة الوزير رضوان، أسامة بمهمة سياسية تجاه رضوان، رضوان فى حبس مصر، رضوان يقتله الحرس الفاطمى، أسرة أسامة بيد الإفرنج، أول

(١) سورة الرعد، آية: ٣٨.
(٢) سورة نوح، آية: ٤.
(٣) سورة آل عمران، آية: ١٥٤.

قتال يحضره أسامة، والد أسامة مقاتلاً وكاتباً، عم أسامة وقتاله وشجاعته، مكيدة إفرنجية على شيزر، استخلاص ابن عم أسامة من أيدى الإفرنج، الهزيمة أمام الإفرنج، منزلة الفارس عند الإفرنج، الإفرنج لا أمان لهم، قوة الإفرنج، شجاعة العرب، أسامة يفتدى الأسرى، العقل والقتال، الذهول وعواقبه، الحديث عن الخيل، أسامة على استعداد دائم للقتال، عم أسامة يتفقد ذهنه، مكافحة الأسود والضوارى، أسامة والأسد، قتال النمور، اختبارات حربية، بطولات النساء، طبائع الإفرنج وأخلاقهم.

ويبدو من العناوين السابقة أن هذا القسم هو أكبر جزء فى سيرته، وأكثرها فائدة وقيمة وأغناها بالأحداث ويتجلى خطرها فى أنه حضرها بنفسه، فكان تسجيلها بالرؤية العقلية والصورة البصرية أهم ما يميزها.

القسم الثانى: تحدث فيه عن بعض الطُرف والأخبار التى حضر بعضها، أو حُدث ببعضها ممن يثق بهم، ويمكن أن نضع عنواناً لهذا القسم هو (نكت ونوادر) ونجد فيه الحديث عن:

أخبار بعض الصالحين، بصيرة الشيخ البصرى، سمع ابن قبيس، شهوة شيخ ميّت تتحقق، رجل بالمعرة يشعر بموت آخر فى مكة، جزاء الأمانة، الشفاء بطرق غريبة، معجزات ابن بطلان فى الطب.

ويرى بعض الدارسين ومنهم الأستاذ عبد الكريم الأشتر[1] أن هذا القسم لا علاقة له بموضوع الكتاب، ويتفق معه فى الرأى محقق

(١) من كتاب الاعتبار ص ١٠- منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومى – سوريا – دمشق ١٩٨٠.

الاعتبار الدكتور قاسم السامرائى[1] الذى يرى أن أسامة أملى هذا الجزء بعد إتمامه.

ولا أتفق معهما فى الرأى، فالحق أن ما ذهبا إليه ليس من فكرهما، فقد صرح أسامة بشئ يلمح إلى ذلك فى أول هذا القسم حيث قال: "هذه طرف وأخبار حضرت بعضها وحدثنى ببعضها من أثق به جعلتها إلحاقاً فى الكتاب، إذ ليس مما قصدت ذكره"[2].

لكن قول أسامة لا يدل دلالة صريحة على أن هذا القسم لا صلة له بسيرته، فقوله يؤكد الصلة بالكتاب حيث قال: إن هذه الطرف حضر بعضها، وحضورها يؤكد علاقتها بحياته، كما أن قوله: "حدثنى ببعضها من أثق به" يؤكد أن حياة الإنسان لا تجعله يشاهد كل شئ فى الحياة التى يعيشها، فجانب من التجارب والخبرات يعتمد على التلقى من الآخرين خاصة الثقات، وإذا علمنا أن القصد من هذا القسم إضفاء العبرة والعظة على قارئ السيرة وإسباغ رداء الفكاهة عليه، وأنه قصد إلى إيراد سيرته بطريقة فنية غير جافة فيها المرح والدعابة حتى لا يمل القارئ وإن هذه الطرف والنوادر والأخبار لها صلة وتأثير فى شخصيته وتدور حوله، تأكد أن هذا القسم أصيل وأساسى فى الكتاب وله علاقة بسيرته.

القسم الثالث: تحدث فيه عما حضره وشاهده من الصيد والقنص ويمكن أن نضع له عنواناً هو (أخبار الصيد والقنص) حيث نجد الحديث فيه عن: الصيد فى أماكن مختلفة فى سوريا، الجزيرة العربية، مصر، الصيد مع الأشخاص مثل نور الدين محمود، صيد البزاة والفهود، أنواع البزاة، كلاب الصيد، مراقبة الإفرنج فى أوقات

(١) الاعتبار المقدمة: ٢١.
(٢) الاعتبار: ١٨٤.

الصيد، الفرق بين الخيول العربية والبراذين، صيد الحبارى والوز والعيمة والسمك، والحمر الوحشية...

ويرى محقق الاعتبار فى هذا القسم رأيين أراهما متناقضين.

الأول: أن فصل الصيد والقنص بالجوارح والكلاب والفهود يعد من أحسن ما كتب فى الصيد والقنص من كتابات القرن السادس الهجرى"[1].

واتفق معه فى هذه الوجهة؛ لدقة ما كتبه أسامة فى هذا الجانب والملاحظات والدقائق الطريفة والغريبة فى عالم الحيوان والطير.

الثانى: يرى أن هذا الفصل ليس أساسياً فى الكتاب؛ لأنه ألحق به بعد تمامه ولأن لغته تختلف عن لغة بقية الكتاب فى كونها لغة كتابية أقرب إلى لغة أسامة الأدبية فى كتبه الأخرى[2].

وأرى أن هذا الفصل أساسى فى سيرة أسامة، بإقرار من المحقق؛ إذ أنه أشار إلى أن حديث الصيد عنده من أجود ما كتب فى القرن السادس الهجرى، واعترف بأن لغة هذا الفصل هى لغة أسامة الأدبية.

أما ما قاله عن أنه ألحق بالكتاب بعد تمامه، فلا ضير فى ذلك، فقد قصد أسامة إليه قصداً لفائدة جليلة لسيرته؛ لأنه يقترب من موضوع سيرته ويتصل بشخصيته اتصالاً وثيقاً لأمرين:

الأول: أن الصيد كان أبواب من باب الجهاد والحرب، فكان يتخذ وسيلة من وسائل الخروج إلى الثغور والصحراء وجوانب البحار

(١) الاعتبار المقدمة: ٢١.
(٢) المرجع السابق: ٢١.

لمراقبة الإفرنج الغزاة المتربصين، ويبين مدى أصالة ذلك فى السيرة أنها تتعلق فى أغلبها بالحديث عن الإفرنج وحربهم.

الثانى: أن أسامة كان فارساً وشاعراً وحياة الفارس معروفة بالقتال وتتممها جوانب الصيد والقنص فى أوقات الفراغ، للتسرية عن الروح، وإعداد النفس للمعارك، فالصيد فى مقاصده الخفية يعد الفارس لإصابة الرمى فى الطير والحيوان، وهو نوع من التمرين والتدريب على إصابة الهدف من العدو، إذاً فالصيد والقنص متمم لجوانب الفروسية الحربية، ومن منا لا يعرف فرسان العرب الذين اتصلت حياتهم بالصيد كأبى دؤاد الإيادى، وقيس بن الحطيم، وأبى قيس بن الأسلت وعمرو بن معد يكرب.

تعريف السيرة الذاتية:

جاء في المعجم الأدبى في تعريف السيرة الذاتية: "هى كتاب يروى حياة المؤلف بقلمه، وهو يختلف مادة ومنهجاً عن المذكرات أو اليوميات"(١).

وعرفها محمد عبد الغنى حسن بأنها "أن يكتب المرء بنفسه تاريخ نفسه، فيسجل حوادثه وأخباره، ويسرد أعماله وآثاره، ويذكر أيام طفولته وشبابه وكهولته وما جرى له فيها من أحداث تعظم وتضؤل تبعاً لأهميته"(٢).

أما د. عبدالعزيز شرف فيقول فيها: "السيرة الذاتية تعنى حرفيا ترجمة حياة الإنسان كما يراها هو"(٣).

---

(١) المعجم الأدبى: ١٤٣.
(٢) التراجم الذاتية : ٢٣.
(٣) أدب السيرة الذاتية: ٢٧.

وقيل: إنها "حكى استيعادى نثرى يقوم به شخص واقعى عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة"(١).

ومن أحسن ما عُرفت به قول أحد الباحثين: "الترجمة الذاتية الفنية هى التى يصوغها صاحبها فى صورة مترابطة، على أساس من الوحدة والاتساق في البناء والروح، وفى أسلوب أدبى قادر على أن ينقل إلينا محتوى وافياً كاملاً عن تاريخه الشخصى، وعلى نحو موجز حافل بالتجارب والخبرات المنوعة الخصبة، وهذا الأسلوب يقوم على جمال العرض، وحسن التقسيم، وعذوبة العبارة، وحلاوة النص الأدبى، وبث الحياة والحركة في تصوير الوقائع والشخصيات، وفيما يتمثله فى حواره مستعيناً بعناصر ضئيلة من الخيال لربط أجزاء عمله حتى تبدو ترجمته الذاتية في صورة متماسكة محكمة، على ألا يسترسل مع التخيل والتصور حتى لا ينأى عن الترجمة الذاتية"(٢).

ويفضلها بعض الباحثين على أى فن آخر، يقول على شلش: "السيرة الذاتية نوع من الأدب الحميم الذى هو أشد لصوقا بالإنسان من أية تجربة أخرى يعانيها"(٣).

ومن خلال التعريفات السابقة يتضح أنها عملية إبداعية حميمة ترتبط بالذات، وأنها عبارة عن قصة فنية تروى حياة الفرد الذى يرويها بنفسه، ومعنى ذلك أنها لا تنطبق على أى حديث يرويه الفرد عن نفسه، وإن أى إنسان آخر غير صاحب السيرة يمكن أن يكتب

---

(١) عندما تتكلم الذات : ١١.
(٢) الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث : ١٠.
(٣) النثر العربى في نماذجه وتطوره لعصرى النهضة والحديث: ٣٢٤.

سيرة الفرد إذا كان لا يملك الموهبة الأدبية للكتابة الفنية، وتكون عن طريق الإملاء، وهى ليست عبارة عن جمع أحاديث وأخبار متناثرة تُروى عن الفرد، ولا هى جمع لأخبار القوة والفتوة والمفاخر والمديح، وهى نوع من الفن القصصى يشترط فيه البناء الفنى. وإذا كانت وسيلة لنقل تجربة كاتبها إلى الآخرين فيشترط فيها الصدق الفنى والواقعى كى يستفيد بها القارئ وينتفع بتجربتها، وعلى كل فهى تكشف عن خبرة إنسانية قد انقضت تعلن عن زمن مديد عاشه صاحبها، زمن امتزج فيه صراع الزمن مع الإرادة الإنسانية، وما هى إلا حوار مع النفس منقول بأمانة إلى المتلقى.

ويقترب من السيرة الذاتية فنان هما اليوميات والمذكرات لكنهما يفترقان عنها:

فاليوميات صورة من صور السيرة الذاتية يكتبها صاحبها يوما بيوم، حيث يدون ملاحظاته بالنظام الذى وقعت فيه الأحداث التى شاهدها أو كما رويت له من شهود عيان، كما تبدو فيها الأحداث على نحو متقطع غير رتيب(١).

أما المذكرات فلا تنشغل بالحياة الشخصية والفردية بل بالحياة العامة، وفيها يقص الكاتب تاريخ عصره من خلال رؤيته، وهى أكثر عناية بتصوير الأحداث التاريخية(٢).

ويتكون هذا البحث من فصلين:

الفصل الأول: الأبعاد الفكرية.

الفصل الثانى: الأبعاد الفنية.

---

(١) الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث: ٣.
(٢) المرجع السابق: ٣.

الفصل الأول
الأبعاد الفكرية

تدور الأبعاد الفكرية فى سيرة ابن منقذ حول محور كبير حوله كل الأبعاد، وهذا المحور هو الإنسان فى زمنه سواء كان بقسميه الرجل والمرأة أو بجنسيه العربى والإفرنجى.

الإنسان العربى

نجد أن الإنسان العربى تمثله شخصية أسامة بن منقذ وهى شخصية كبرى، ويتبعها ما ذكره من شخصيات أخرى.

شخصية أسامة (المؤلف):

هى الشخصية الرئيسة فى السيرة، تدور حولها جميع الأحداث والشخصيات، وترتد انعكاسات أفعال الآخرين عليها فتترك أثرها فى حياته، وبتأثير فعل الآخرين على شخصيته كانت تتأرجح بين القوة والضعف والثبات. والتطور وقد وضح في سيرته بدقة كل المراحل والتكوينات التى مر بها سواء كانت مادية أم فكرية أم نفسية.

مولده:

فيذكر أنه ولد في حصن شيزر يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربع مئة[1].

وكان أسامة ولداً نجيباً لأب عربى نجيب أصيل ذى نخوة ومروءة وشجاعة وأم عربية لا تختلف عن زوجها فى السمات والصفات، وقد اهتمت كل أسرته – أبوه، أمه، عمه، خادمته، بتربيته حتى جدته العجوز التى كانت ترعاه، وتخلص له النصيحة وتحذره من عمه[2] – ابنها – وأن لمعان أسامة فى سماء شيزر يزيد عمه منه بغضاً وبُعدا بعد أن أنجب، وقبل أن ينجب كان مهتماً جداً بأسامة.

---

(١) الاعتبار: ١٤٤.
(٢) المرجع السابق: ١٤٧.

تعليمه وتربيته الأدبية والعلمية والدينية:

يذكر أنه تعلم النحو على يد الشيخ أبى عبد الله الطليطلى النحوى، ويقول عنه: إنه كان فى النحو سيبويه زمانه"[1] وقد قرأ عليه النحو أكثر من عشر سنين وكان متولى دار العلم بطرابلس، وأنه أتقن فن الخط من تعلمه على يده حيث كان قريبا فى الخط من طريقة ابن البواب، وقد ترك هذا الشيخ أثراً محموداً فى نفس أسامة ووالده لإخلاصه فى تعليم أسامة ولما أسُر فى استيلاء الإفرنج على طرابلس استخلص والد أسامة وأخوه أبو العساكر هذا الشيخ من يد الإفرنج ودفعا ثمن فدائه مروءةً وشهامة؛ لتعليمه أسامة وقد انتقل إلى مصر يبغى الأمان بعد ذلك ومات بها.

وقد نشأ[2] فى بيئة أدبية وعلمية حيث كان العلماء والأدباء والشعراء يحطون الرحال فى شيزر – مقر أسرته – هذا الحصن القوى الذى كان منارة حربية قاسية ضد الروم وموطناً آمنا لمن يلجأ إليه من العلماء فى القرن الخامس، والسادس الميلادى، وكان والده إماماً وشيخاً وعالماً لشيزر حيث كان مقيماً على القرآن تلاوةً ونسخاً وتفسيراً مقرباً للعلماء، ويستخلص الذين يقعون فى الأسر منهم من يد الروم، فنشأ أسامة فى ساحات شيزر على حب العلم والعلماء، لاسيما الشعر والأدب وانظر إلى ما ألفه من كتب أدبية تدل على أصالة التربية العلمية والأدبية منها: البديع فى نقد الشعر، الشيب والشباب، أخبار النساء، المنازل والديار، النوم والأحلام"[3].

بل انظر إلى اختياراته العلمية والأدبية فى كتاب لباب الآداب فى أبواب: السياسة، والوصايا، وكتمان السر، والتواضع والصمت.

---

(١) الاعتبار: ٢١٥.
(٢) المرجع السابق: ٥٨.
(٣) ينظر لباب الآداب ، ص : ل.

والقناعة، والحياء، والإصلاح بين الناس، ومن كلام سليمان بن داود، ومن قول برسين الحكيم، وألفاظ أفلاطون.

ومن دلائل اهتمامه بالعلم والأدب مصاحبته لمكتبته النفيسة الكبيرة في رحلاته، وقد فُقدت حين عودته من مصر عائداً إلى دمشق وكانت تحوى أربعة آلاف مجلداً من الكتب الفاخرة حسب ما ذكر[1]، وكان لفقدها حزازة في قلبه عاش بها إلى أن مات.

أما التربية الدينية فكانت سلوكاً عملياً أمامه، إذ كان يرى والده يقضى نهاره صائماً مجاهداً مرابطاً لقتال الروم، يقيم الليل على تلاوة القرآن ونسخه وتفسيره، وقد اعتنى بتربيته هو وأخوته تربية دينية قويمة، فمثلاً إذا خرجوا للصيد – وكانوا حفاظاً لكتاب الله – أمرهم أبوهم بأن يتفرقوا وأن يقرأ كل واحد منهم من القرآن ما يستطيع، ثم يستدعيهم، فيسألهم كم قرأ كل واحد منهم؟ فيخبرونه، فيقول لهم: أما أنا فقد قرأت مائة آية أو نحوها ضارباً لهم المثل الأعلى الذى يحتذونه في الحفظ والتلاوة، وكان أسامة معجباً به في حفظ القرآن الكريم، ويأخذ طريقته حيث يقول عنه: "وكان رحمه الله يقرأ القرآن كما أنزل"[2].

وينقل حديثاً وهو من دون العشر سنين حيث نشأ مناصراً للضعفاء، قوى البنية شجاعاً يعرف الطعن والضرب والدفاع عن النفس ورد الخصم لكنه كان قليل الحكمة لصغره متسرعاً يقع في الأخطاء وقد اعترف بهذا في كبره، وندم على بعضها حيث كان يوما على باب دار لوالده، وهو دون العشر سنين، فلطم غلام لوالده صبيا من خدام الدار، فانهزم وتعلق بثوب أسامة، فلحقه الآخر فلطمه ثانيا،

(١) الاعتبار: ٥٨.
(٢) المرجع السابق: ٢٠٨.

فضربه أسامة بقضيب كان في يديه، فدفعه فجذب سكيناً كان فى وسطه فضربه بها فمات"[1].

فأنت ترى صبياً صغيراً لم يبلغ العشر سنين وإن شئت قلت عمره بضع سنين فى صورة الفارس الصغير يمسك بقضيب من حديد، ويشد سكيناً فى وسطه، يجوب الطرقات فى شيزر قوياً معتزا بقوته ونفسه ويحتمى به الضعفاء وينصرهم بل يقتل الجائر المعتدى، حيث تعطينا هذه الصورة أيضاً صورة للفتى العربى الذى أذن له أهله بمسك القضيب الحديدى وشد الخنجر أو السكين فى وسطه وهو لم يعرف القتال بعد، فقد كانت تلك الأيام عصيبة على الرجال فى بلاد الشام لم تخل يوماً من حرب مع الروم، وكيد المؤيدين لهم داخل الثغور والبلاد، فسمح الناس لأولادهم أن يصطحبوا معهم ما يحتمون به فضلاً عن أن أسامة كان من أسرة كلها من المحاربين الفرسان الشجعان وأطفالهم يشبون على طريقتهم.

تربيته البيتية:

ومن أوجه تربيته خلاف الدينية والأدبية والعلمية تلك التربية البيتية التربوية حيث الإقدام وقوة النفس على مكافحة الضوارى والأسود، فقد تعلم وهو فتى صغير لم يبلغ الحلم على اتخاذ القرار، والإقدام على المخاطر وعدم الانتظار لعون الآخرين حتى يحدق الخطر وتكون الكارثة عندها، وقد أعطاه والده هذا الشعور والدافع، يقول عن تصرف والده معه فى الإقدام على المخاطر وهو غلام صغير وأثر هذه التصرفات التربوية عليه: "ومرة كنت معه – رحمه الله – وهو واقف فى قاعة داره وإذا حية عظيمة قد أخرجت رأسها على إفريز رواق القناطر التى فى الدار، فوقف يبصرها، فحملت سلما

(١) الاعتبار: ١٦٣.

كان فى جانب الدار أسندته تحت الحية، وصعدت إليها، وهو يرانى فلا ينهانى، وأخرجت سكيناً صغيرة من وسطى وطرحتها على رقبة الحية وهى نائمة وبين وجهى وبينها دون الذراع، وجعلت أحز رأسها، وخرجتْ التفتُ على يدى، على أن قطعتُ رأسها وألقيتها فى الدار وهى ميتة"(١).

ومرة أخرى، وقد شب شبوب الأقوياء لا ينهاه والده عن قتال الأسد، لكن فى هذه المرة يشفق عليه ويحذره فالخطر شديد فظيع يقول: "بل رأيته – رحمه الله – وقد خرجنا يوماً لقتال أسد على الجسر – يقصد جسر نهر العاصى – فلما وصلنا حمل علينا من أجمة كان فيها، فحمل على الخيل ثم وقف، وأنا وأخى بهاء الدولة منقذ – رحمه الله – بين الأسد وبين موكب فيه أبى وعمى – رحمهما الله – ومعهما جماعة من الجند، والأسد قد ربض على جرف النهر يتضرَّب بصدره على الأرض ويهدر، فحملتُ عليه، فصاح علىَّ أبى، رحمه الله، لا تستقبله يا مجنون فيأخذك !! فطعنته. فلا والله ما تحرك من مكانه ومات موضعه، فما رأيته – يقصد أباد – نهانى عن قتال غير ذلك اليوم"(٢).

فأنت أيها القارئ الكريم ترى موكباً خرج لقتل الأسد، فيه الجند بأسلحتهم، والرجال الأقوياء الكبار الذين خاضوا الحروب وخبروا معانى القتال، بينما تشاهد أسامة الفتى الغر يتقدم من دونهم بلا إذن أو اختيار من قائد الموكب – والده – لقتل الأسد، واثقاً من قدرات نفسه، لكن الوالد يصيح صيحات الأب الحنون، وينصحه بعدم رمى نفسه فى التهلكة، بل انظر إلى قوله: يا مجنون، وما بها من تصور لتسرع وتهور ابنه فى تصرفه وتعنيفه على فعلته، وتأتى المشيئة

(١) الاعتبار: ١٢٥.
(٢) المرجع السابق: ١٢٦.

بأن يُقتل الأسد على يد هذا الغلام بطعنة واحدة لم يثنها، فيطمئن فؤاد الوالد بتجربة ابنه، ويعرف أنه ليس كأى ابن، فلا ينهاه بعد هذا الموقف عن القتال.

ومن هنا يعطينا أسامة الصورة التربوية للإنسان العربى فى هذه الحقبة بلا مبالغة.

وكان أثر هذا حميداً عليه، حيث نشأ فى مدرسة تربوية تعجز المدارس المتقدمة على أن تقدم لمن ينتمى إليها مثل هذه التربية، من حيث الحرية فى التفكير، وعدم الانتظار لأية مساعدة وقت الخطر، فربما لا تأتى المساعدة، كذلك الخشونة فى التربية التى تقيم عود الإنسان ولا تعوده اللين والضعف، واتخاذ الشجاعة والفروسية مبدأ حياتيا له أسسه وأركانه، ولذا اكتسب احترام أسرته ومنهم عمه الذى كان يضمر له شيئاً فى نفسه ظهر بعد ذلك.

تربيته الحربية:

وقد اهتم والده بتربيته التربية الحربية السلمية منذ نعومة أظفاره، وتربيته على الفروسية العربية وركوب الخيل فهو يذكر طرفا من هذه التربية قائلاً: "وما رأيت الوالد – رحمه الله – نهانى عن قتال ولا ركوب خطر مع ما كان يرى فىَّ وأرى من إشفاقه وإيثاره لى. ولقد رأيته يوماً وكان عندنا بشيزر رهائن عن (بغدوين) ملك الإفرنج على قطيعة قطعها لحسام الدين تمرتاش بن إيلغازى – رحمه الله – فرسان إفرنج وأرمن، فلما وفَّوا ما عليهم وأرادوا الرجوع إلى بلادهم، نَفَّذ خير خان صاحب حمص خيلاً كمنوا لهم فى ظاهر شيزر فلما توجه الرهائن خرجوا عليهم أخذوهم، ووقع الصائح. فركب عمى وأبى – رحمهما الله – ووقفا، وكل من يصل إليهما قد سيَّراه من خلفهم، وجئت أنا فقال لى أبى: اتبعهم بمن معك، وارموا أنفسكم عليهم، واستخلصوا رهائنكم، فتبعتهم وأدركتهم بعد ركض أكثر

النهار، واستخلصت من كان معهم، وأخذت بعض خيل حمص، وعجبت من قوله: "ارموا نفوسكم عليهم"(١).

فوالده مع حبه له وإشفاقه على صغره يجعله يتقدم بشجاعة في مواقف الحرب، ويعوّده على عدم الخوف، واقتحام المخاطر، انظر إلى قوله: "وارموا أنفسكم عليهم" "استخلصوا رهائنكم" وما فيها من تحمل المسؤلية والاندفاع القوى حتى ولو كان ثمن ذلك قتله بيد الإفرنج.

أول قتال حضره ضد الإفرنج:

ويذكر أول قتال حضره، وهو ابن الخامسة عشرة من عمره حيث شارك مع أبيه وعمه وقومه في قتال الروم ببلدة (أفامية) وهي من حصون سواحل الشام، يقول: "فإن نجم الدين إيلغازى بن أرتق – صاحب حلب وديار بكر – رحمه الله – كسر الإفرنج على (البلاط) – بلدة بقرب الموصل – وذلك يوم الجمعة خامس جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة خمسمائة وأفناهم وقتل صاحب أنطاكية روجار وجميع فرسانه، فسار إليه عمى عز الدين أبو العساكر سلطان رحمه الله وتخلف والدى – رحمه الله – فى حصن شيزر – وقد وصاد أن يسيرنى إلى أفامية بمن معى بشيزر من الناس، ويستنفر الناس والعرب لنهب زرع أفامية، وكان قد هدف – أى تجمع – من العرب إلينا خلق كثير. فلما سار عمى نادى المنادي يوميات من مسيرد، وسرت فى نفر قليل ما يلحق عشرين فارساً، ونحن على يقين أن أفامية ما فيها خيالة، ومعى خلق عظيم من النهابة والبادية، فلما صرنا على وادى أبى الميمون، والنهابة والعرب متفرقون فى الزرع. خرج علينا من الإفرنج جمع كثير، وكان قد وصلها تلك الليلة ستون فارساً وستون راجلاً، فكشفونا عن الوادى، فاندفعنا بين أيديهم إلى أن وصلنا الناس الذين فى الزرع ينتهبونه، فضجوا ضجة عظيمة.

(١) الاعتبار: ١٢٤، ١٢٥.

فهان علىَّ الموت لهلاك ذلك العالم معى، فرجعت على فارس فى أولهم قد ألقى عنه درعه وتخفف ليجوزنا من بين أيدينا فطعنته فى صدره فطار عن سرجه ميتاً، ثم استقبلت خيلهم المتتابعة فولوا، وأنا غر من القتال ما حضرت قتالاً قبل ذلك اليوم، وتحتى فرس مثل الطير، ألحق أعاقبهم لأطعن فيهم ثم أجتن عنهم"[1]. وبعد أن يصور شجاعته وقوة طعناته، وفروسيته على الرغم من صغر سنه، وتمكنه من ركوب الخيل المسرعة، يصور شعوره فى هذا اليوم فى قتال الفرسان من الإفرنج يقول مكملاً لحوادث هذا اليوم: "وفى آخرهم فارس على حصان أدهم مثل الجمل بالدرع ولأمة الحرب، أنا خائف منه، لا يكون جاذباً لى ليعود علىَّ، حتى رأيته ضرب حصانه بمهماز فلوح بذنبه، فعلمت أنه قد أعيا، فحملت عليه طعنته، فنفذ الرمح من قدامه نحواً من ذراع، وخرجت من السرج لخفة جسمى وقوة الطعنة وسرعة الفرس، ثم تراجعت وجذبت رمحى وأنا أظن أنى قتلته. فجمعت أصحابى وهم سالمون"[2].

ثم يصور قلق[3] والده عليه، فقد وصل غلام إلى شيزر ليخبر والد أسامة بما جرى فى هذا اليوم، وقد علم والده ضراوة الحرب، فقال للغلام: كيف يسلم مولاك دون الناس ؟ يقصد أسامة، فقال الغلام: رأيته قد لبس وركب الخضراء – يقصد فرساً –، ولما وصل أسامة إلى أبيه قال له: يا مولاى كان أول قتال حضرته، فلما رأيت الإفرنج قد وصلوا إلى الناس، هان علىَّ الموت، فرجعت إلى الإفرنج لأقتل أو أحمى ذلك العالم.

وفى هذا اليوم كان أسامة قد طعن أحد فرسان الإفرنج طعنة قوية برمحه، فخرجت من السرج لكنه لم يُقتل، وكانت ضربة نادرة لا يضربها إلا فارس مجرب خبير، كيف هذا وهو صبى صغير ؟! ابن

(١) الاعتبار: ٦٢، ٦٣.
(٢) المرجع السابق: ٦٣.
(٣) المرجع السابق: ٦٣.

خمس عشرة سنة، فلما عاد فارس الإفرنج إلى قومه، وشاهدوا الطعنة، أرسلوا فارساً إفرنجياً إلى عم أسامة[1] ليبصر هذا الفارس العربى الذى طعن هذه الطعنة لفارسهم؛ لأنهم تعجبوا من قوتها ودقة رميها، وهم لا يعلمون أن ضاربها غلام ابن خمس عشرة سنة !

ولم تترك أسرة أسامة له الحبل على الغارب ينشأ فارساً كيفما شاء، فالفارس دائماً فى حاجة فى أوليات حياته القتالية إلى من يرعاه ويعتنى به وينصحه، ويكون أكثر حنكة وتجربة منه، فبالإضافة إلى أبيه الذى يدربه ويمتحنه، نجد عمه يتفقد ذهنه فى الحرب[2]. فبعد انتهاء إحدى المعارك مع الإفرنج وكان النصر حليفاً لأسامة يقول له عمه بعد أن لاحظه واختبره: "ما أراك كنت إلا حاضر القلب وما أدهشك القتال"[3].

أسامة على استعداد دائم للقتال:

فقد عاش حياته كلها فى رباط واستعداد دائم للقتال، لم يتخل عنه يوماً ما إلى أن بلغ من الكبر عتيا، على الرغم من مشاغله الإبداعية والأدبية فى نظم الشعر وتأليف المؤلفات التى ليست بالقليل لديه، إلا أن ذلك لم يلهه عن مسؤلية الحرب والقتال فهو يحكى عن نفسه هذه الحكاية التى تؤكد أنه كان ملازماً للباس الحرب فى يقظته ونومه حتى يكون على أتم استعداد للقتال، حتى خيله هى أيضاً مسرجة مهيئة للركوب لا ينقصها شئ من عُدة وعلف ورعاية يقول: "اذكرنى ذكر الخيل بأمر جرى لى مع صلاح الدين محمد الغسيانى – رحمه الله – وذلك أن ملك الأمراء أتابك زنكى، -رحمه الله- نزل على دمشق بأرض داريا، وقد أرسله صاحب بعلبك جمال الدين محمد

(١) الاعتبار: ٦٤.
(٢) المرجع السابق: ١٢٣.
(٣) المرجع السابق: ١٢٤.

ابن بورى بن طغدكين رحمه الله، فى الوصول إليه وخرج من بعلبك متوجهاً إلى خدمة أتابك، فبلغه أن عسكر دمشق خرج يريد أخذه، فأمر صلاح الدين أن نركب للقائه ودفع الدمشقيين عنه، فجاءنى رسوله فى الليل يقول: اركب، وخيمتى إلى جانب خيمته، وهو قد ركب ووقف عند خيمته فركبت فى الوقت فقال: كنتَ قد علمت بركوبى ؟ قلت: لا، والله، قال: الساعة نفذت إليكَ، فركبتَ فى الوقت ؟؟

قلتُ: يا مولاى، حصانى يأكل شعيره ويلجمه الركابى ويقعد، وهو فى يده على باب الخيمة، وأنا ألبس عُدتى، وأتقلد سيفى وأنام، فلما جاءنى رسولك ما كان لى ما يعوقنى"[1].

فرسول صلاح الدين يأتيه ليلاً بلا موعد بينهما، ويأمره بالركوب للحرب، وإذا به يركب من لحظته بلا إبطاء، فيتعجب صلاح الدين من ركوبه سريعاً حتى يظن أنه علم بمجئ رسوله وركوبه هو، فيخبره أنه لم يكن يعلم بشئ من هذا، وإنما هو مستعد دائماً للحرب، لأنه يلبس لباس الحرب ويتقلد سيفه وينام بهما، وحصانه مستعد مع الركابى بسرجه على باب الخيمة، فلما جاءه الرسول لم يعقه شئ عن تنفيذ الأمر.

وهو بذلك يضع مبدأ قتالياً مهماً فى الحياة الحربية، فالجنود لابد أن يكونوا دائماً فى يقظة واستعداد حتى لا يأخذهم أعداؤهم على حين غفلة، وكثيراً ما تحدث الهزائم بسبب الغفلة وعدم الاستعداد من الجنود بل من القادة أنفسهم، فالعدو لا يغفل دائماً! قال تعالى: ﴿ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ﴾[2].

---

(١) الاعتبار: ١٢٢.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٠٢.

أما الحروب التى شارك فيها فهى أكثر من أن تحصى كما قال: "وقد شهدت من الحروب مع الكفار والمسلمين مالا أحصيها، وما النسيان بمستنكر لمن طال عليه ممر الأعوام"(١). ويذكر فى سيرته هذه المواطن التى قاتل فيها فقد قاتل فى شيزر ضد الروم والإفرنج والإسماعيلية والباطنية، وحارب الإفرنج فى: عسقلان، وبيت جبريل بالقدس، وينبى، وحماة، وأفامية، ورفنية، وكفر طاب، وآمد، وحصن الجسر، وحصن البارعة، وحصن أسفونا، وحصن الصور، ودمشق.

ومن خلال هذه المعارك يعرف ببلائه وشجاعته وشجاعة أبيه وعمه وإخوته وأبناء عمه ونساء الحصن والفتيان، وعجائب الطعنات القاتلة من المسلمين والإفرنج معاً، وعجائب الموت من أيسرها والنجاة من أصعبها وشدتها، وعجائب السيوف والرماح. ورحمة المسلمين بأسرى الإفرنج، وقتل وتعذيب الإفرنج لأسرى المسلمين، والهزيمة والنصر للمسلمين والإفرنج، والجبن والفرار والشجاعة والثبات وكثرة النفير وقلته، وأن النصر من عند الله وحده، وجنود الله الخفية التى تقاتل مع المسلمين، والخدعة فى الحرب ويقظة الذهن وكثرة التجربة وقلتها، وطرائف القتل، والهدنة وخرقها من الإفرنج والحصار، والأماكن التى تحارب مع أصحابها....الخ.

طرائف قتالية:

ويروى عدداً من الطرائف القتالية التى تندر أحداثها ومنها ما حدثه به مملوك لوالده، قال: "كنا فى حصار الروم جلوساً فى دهليز الحصن بُعدنا وسيوفنا فإذا شيخ قد جاءنا يعدو، قال: يا مسلمون دخل الروم، فأخذنا سيوفنا وخرجنا وجدناهم قد طلعوا من ثغرة فى

(١) الاعتبار: ٥٨.

السور ثغرتها المجانيق، فضربناهم بالسيوف حتى أخرجناهم، وعدنا وبقيتُ أنا وذلك الشيخ الذى استفزعنا، فوقف وأدار وجهه، فأعرضتُ عنه فسمعتُ وجبة – أى السقطة مع الهدة – فالتفتُ وإذا الشيخ قد ضربت رأسهَ حجرُ المنجنيق كسرته وألصقته بالحائط ومخه قد سال على الحائط، فحملته وصلينا عليه ودفناه فى مكانه"[1].

ومن ذلك ما رآه أسامة أن حجراً من المنجنيق ضربت رجلا من أصحابه فكسرت رجله، فحملوه إلى عمه وهو جالس فى دهليز الحصن فقال: هاتوا المجبر، فحضر وجلس يجبر رجله وهو فى سترة خارج باب الحصن، فضربت الرَّجُلَ المكسورَ حجرٌ فى رأسه طيرته فدخل المجبر إلى عم أسامة فقال له: ما أسرع ما جبرته ؟ قال يا مولاى جاءته حجرٌ ثانية أغنته عن التجبير"[2].

ومن الطرائف القتالية العجيبة ما حضره أسامة بنفسه فى حرب الإفرنج فى دمشق يقول: "إنه كان فى عسكر حماة أخوان أكراد اسم الواحد بدر واسم الآخر عناز، وكان هذا عناز ضعيف النظر، فلما كُسر الإفرنج وقُتلوا، قَطعوا رؤوسهم وشدوها فى سموط خيلهم، وقطع عناز رأساً وشده فى سموطه فرآه قوم من عسكر حماة، فقالوا له: يا عناز أى شئ هذا الرأس معك ؟ قال سبحان الله ! لما جرى بينى وبينه قتلته، قالوا له: يا رجل !! هذا رأس أخيك بدر، فنظره وتأمله، فإذا هو رأس أخيه، فاستحى من الناس وخرج من حماة فما ندرى أين قصد"[3].

---

(١) الاعتبار: ١٣٤.
(٢) المرجع السابق: ١٣٤.
(٣) المرجع السابق: ١٣٧.

قوة الطعن والضرب:

ويتحدث فى مقام الحرب عن قوة الطعنات والضربات من العرب والإفرنج معاً؛ ليبين أن القتال ليس بالأمر السهل، بل يحتاج إلى مجاهدة النفس والبعد عن حب الدنيا، وأن القوة المادية والروحية لابد أن تتوفر فى المحارب وأخذ التجربة والتمرين من المعارك، للاستفادة فى حروب المستقبل، وأن الأجل بيدد سبحانه وتعالى.

فقد شاهد من غرائب الطعنات الكثير منها: أنه بعد انتهاء إحدى المعارك مع الإفرنج، وهم فى العودة إلى شيزر فى الطريق. تأخر رجل يسمى (رافع) كى يحمى الأعقاب، وهو لابس كزاغند، وعلى رأسه خوذة، وهو مُؤمن بلباس الحرب من أية طعنة تصيبه، حيث تدافع الكزاغند عن صدره، والخوذة عن رأسه، فالتفت ينظر من بالوراء، فإذا بضربة سهم فى حلقه، فذبحته ووقع ميتاً مكانه[1].

فقد أصابت الضربة موضعاً دقيقاً فى مذبحه، وعدة الحرب كاملة على جسده، فى وقت ليست فيه مبارزة ولا طعان، وهو عائد سالم إلى ديارد. فسبحان من بقدرته الآجال قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[2].

ومن الطعنات العظيمة[3] التى شاهدها، طعنها فارس من الإفرنج فارساً عربياً يقال له (سابة بن قنيب الكلابى) قطع له ثلاثة أضلاع من جانبه اليسار، وثلاثة أضلاع من جانبه الأيمن وضرب شفار الحربة مرفقه ففصله كما يفصل الجزار المفصل، ومات

(١) الاعتبار: ٦٨، ٦٩.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٤.
(٣) الاعتبار: ٧١.

لساعته، فالله كيف بهذه الطعنة الواحدة العجيبة التى تنفذ فى مكان واحد فى الجسم تهشم ما بجوارها من الأضلاع يميناً ويساراً بل تقطع مفصل الرجل أيضاً فى الوقت نفسه ؟!

ومن قوة الطعنات[1] المصيبة طعنة من فارس عربى، كان قد كبر وضعف بصره ضرب بها صدر فارس إفرنجى، فنفذت من جانبه فوقع قتيلاً، وهذه الطعنة فى دقتها وإصابتها لا يرميها إلا مبصر جيد النظر!! وهنا يتجلى توفيق الله لهذا الفارس، وكان قد أصر على ترك القعود فى البيت والموت على الفراش.

وتتجلى فى قوة الطعنات ثنائية الموت والشفاء، فمن الطعن ما يبرئ العلل، فهذه الطعنة الغريبة[2] طُعن بها فارس عربى يدعى (جمعة النميرى) فأصابت ورماً وانتفاخاً عظيماً بوجهه ورمدا بعينه، فسال الدم منه فشفى وبرئ من علته فى حينها، وأصبح أحسن من ذى قبل، وكان سعيداً بهذه الطعنة التى شفته، مع أنها صادرة من عدو لم يطعنها لقصد الشفاء بل لقصد القتل، فكانت بمنزلة مشرط الجراح الذى يزيل الورم ويداوى المرض.

أبعاد شخصيته:

من أبرز أبعاد شخصية ابن منقذ التى ذكرت منها طرفا فيما سبق:

- كرهه للإفرنج: فقد كشف فى سيرته شعوره الصادق نحو الإفرنج، وهو شعور ملئ بالكره والبغض لهم، وكان صادقاً فى تسجيل إحساسه نحوهم، فقد عاش حقبة الصراع الصليبى فى بلاد الشام بدأ من صغر سنه وحتى استرداد صلاح الدين الأيوبى لبيت المقدس وطرد الروم من بلاد الشام، قبل وفاته بعام، وقد

(١) الاعتبار: ٧٣.
(٢) المرجع السابق: ٨١، ٨٢.

شاهد أسامة هذه الحروب وشارك فيها فارساً عربياً نبيلاً، ورأى منهم التخريب والتحريق والتشريد لديار الشام، والغدر بالعهود والفتك بالأسرى، وقد قاتل ضدهم هو وقومه وأهله فى شيزر، وعسقلان، وأفامية، وفلسطين، ودمشق، والكثير من مدن الشام وسوريا، وقد تحدث فى اعتباره عن استشهاد وقتل مجموعة كبيرة من العلماء والفرسان والأخيار فى هذه الحروب، وقد تأسف على موت هؤلاء مثلما تأسف لاستشهاد أخيه عز الدولة أبى الحسن فى (غزة) فى غيابه وأثر ذلك على نفسيته وقد وصفه "بأنه كان من العلماء الفرسان العباد يحارب من أجل الدين لا الدنيا.."[1]. ولا تأتى لفظة (الإفرنج) أو (الروم) أو (الصليبيين) فى سيرته إلا وهى مصحوبة بهذه الجمل الاعتراضية: - لعنهم الله - خذلهم الله - وهم بهائم قبحهم الله - بل إنه ينزل بملوكهم اللعنات فيقول فى أحدهم: شيطان من الإفرنج - لعنه الله - لكن مع ذلك فهو منصف يشهد بشجاعتهم فى القتال والحرب يقول فيهم: "إذا خبر الإنسان أمور الإفرنج سبحَ الله تعالى وقدسه ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير، كما فى البهائم فضيلة القوة والتحمل"[2].

- رسوخ الثقة بالنفس، والإحساس بالقوة، والاستعداد الفطرى لها. فهى جزء من طبيعة التكوين الذاتى له.
- الحرية والرغبة فى الحصول عليها، ومن الأمور التى ارتبطت بها لديه: السفر والترحال. فقد خرج من شيزر بعد أن أجبر عمه على تركها حيث سافر إلى دمشق ثم رحل إلى مصر، ثم إلى الموصل، لكن ظل فؤاده معلق بموطنه يذكر أيامه الخوالى به.

(١) المرجع السابق: ٤١.
(٢) الاعتبار: ١٥١.

- من أبعاد شخصيته: إنسانيته ورحمته فهو يضرب بسهم وافر فيها، حيث يبذل المال فى فداء أسرى المسلمين، ويعاون رجاله فى أحد المعارك فى إخراج جنود الروم من الحريق الذى أوقدوه قبل فرارهم وأسرهم، وهذه قصته مع خادمته التى عاشت فى بيت أفرده لها من داره شاكراً لها تربيته وتربية أبنائه، وكان يحبها ويذكر لها أفعالها الطيبة من صلاة وبر، وكان لا يناديها وهو الأمير إلا بقوله: (يا أمى)[1] ويتولاها بالرعاية والخدمة فيعطف ويحنو عليها ويتفقدها بتكرار الدخول عليها فى بيتها، ومداومته على هذا التفقد لقضاء حوائجها لاسيما بعد أن نكست فى العمر.
- من هذا الأبعاد أيضاً: العفو ففى سيرته يبدو موقفه الشخصى من عمه الذى أخرجه من شيزر بعد أن رزق هذا العم أولاداً، فلا يبدو فيه بغض أو كراهية ولا يذكره إلا بالرحمات، فيقول فى كل موطن يذكره فيه – رحمه الله – ولا يذكره إلا وهو مقرون بأبيه فى الأحداث والمواقف والفضل والمكرمة، بل يعدد له الكثير من البطولات والتضحية والنصر.
- الإرادة والتصميم، فإذا وضع هدفاً أمامه لابد من الوصول إليه مع التميز بحب المغامرة والمخاطرة حتى بالنفس.
- وأهم جانب فى هذه الأبعاد هو الجانب الإسلامى، فهو من أول وهلة فى سيرته يحذر من اجتماع أشتات الروم والإفرنج والصليبيين لمحاربة الإسلام والمسلمين، ويحث المسلمين ومقاتليهم على القتال من أجل الدين لا غيره، ويدفعهم إلى التسليم بقضاء الله وقدره فى الموت، وأن النصر من عند الله لا

(١) الاعتبار: ١٩٩.

بكثرة نفير وعتاد، وهو فى سيرته يضرب المثل فى التعامل مع أسرى الإفرنج حيث يعاملهم بروح الإسلام ورحمته فلا ينكل ولا يحرق ولا يشوه ولا ينتهك حرماتهم الإنسانية كما يفعلون، ويقارن بين الحضارة الإسلامية التى علمت الإفرنج وبين حضارة الروم التى عاشت فى الظلمات وكيف أثرت فيهم .....

أسامة صياداً:

الصيد باب أصيل فى حياة العربى خالص الأرومة، وفيه يتعلم الصبر والفراسة والفروسية واليقظة والخبرة بحياة الطير والحيوان وخصائصهما، ويكتسب الخبرة وتنمية العقل والصحة والبذل والتضحية ومعرفة فضل الله على عباده فى رزقهم وطيب طعامهم، وقد جاء فى القرآن الكريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾[1] .

وقد ذكر فصلاً فى سيرته فيما حضره وشاهده من الصيد والقنص والجوارح، ومن ذلك ما حضره بشيزر فى صدر عمره ودمشق مع شهاب الدين محمود، وأتابك زنكى، وما حضره بمصر وديار بكر وحصن كيفا، وعكا.

وكان المعلم له فيه والده حيث كان مشغوفاً بالصيد يغرم الكثير من المال ويبذله فى جمع الجوارح والصقور وكلاب الصيد وكانت تأتيه من بلاد العرب والأرمن، ويتعجب من امتلاء دار والده بالفهود الصيادة والكلاب الزغاوية والصقور والبواشق وكثير من البزاة والغزلان والطيور الأخرى، وكان يعمل فى رعاية ذلك العديد من الخدام البازارية والغلمان.

---

(١) سورة المائدة، آية: ٩٤.

وقد ركز أسامة فى هذا الباب على أمرين:

الأول: الاهتمام بذكر المكان حيث اختلاف الصيد وطبيعته من بلد لآخر واشتمال ذلك على معارف شتى للبلاد العربية بطيورها وحيواناتها.

وبذلك يعد المكان فى باب الصيد ظرفاً لمجرى حدث الصيد. فشيزر موطن رأسه أشهر مكان صاد فيه، وأهم ما يميزه من طيور وحيوان صيد الحجل والأرانب وهذا قبلى شيزر، أما طير الماء والدراج والغزلان فتصاد على النهر فى الأزوار غربى شيزر[١].

ومصر يُصاد بها الكركى والبج، وطيور الماء فى النيل، وصيد فرس البحر[٢].

ودمشق يصاد بها الطير والغزلان وحمر الوحش واليحامير. ويأخذ الصيد بها وقتاً طويلاً، فتضرب الخيام لمتابعة الصيد[٣].

وحصن كيفا يكثر به صيد الحجل وطائر الزرخ والدراج. ومعزى الجبل، والأرانب[٤].

وتتفاوت الأماكن من حيث الكثرة والقلة فى الصيد، فالجبل بشيزر لا يصاد به[٥] إلا الحجل، وأرض حماة تتميز بالأرانب فقط[٦].

والقلعة بمصر تتميز بكثرة الصيد خاصة الغزلان يقول: "إن الغزلان فى أرض القلعة كثيرة، وهم يخرجون وقت ولادة الغزلان

---

(١) الاعتبار: ٢٠٦.
(٢) المرجع السابق: ٢٠٣، ٢٠٤.
(٣) المرجع السابق: ٢٠٤.
(٤) المرجع السابق: ٢٠٥.
(٥) المرجع السابق: ٢٣١.
(٦) المرجع السابق: ٢٠٥.

خيالة ورجالة، فيأخذون منها ما قد وُلد تلك الليلة وقبلها بليلة وليلتين وثلاث، يقشونها كما يقش الحطب والعشب"[١]!

وقد يكون للمكان أثر فى نشوء بعض الحوادث، وهى لا تقع بسبب خطأ الصياد إنما تقع لما للمكان من خصائص بيئية ككثرة الشجر وعلو العشب، "فهذا السوس المخصب يطعن أخو أسامة (بهاء الدولة) خنزيراً فيه، فيهرب فى خصب السوس، ثم يخرج فجأة ويدخل تحت فرسه ويضربها ويرميها فتنفسخ فخذها وتتلف ويصاب بجرح كبير"[٢].

وهذه الأرض الغلفاء[٣] فى جسر الحصن تكون سبباً فى هروب الصيد ذات مرة، ويخرج منها سبع يفزع الباز والبازيار[٤].

ولا ينسى أسامة أن يذكر الأماكن التى تُجلب وتشترى منها البزاة التى تصيد مثل القسطنطينية، ووادى ابن أحمر وبلاد الأرمن التى تجلب منها الكلاب الزغاوية، أما الجبال فهى مكان إقامة البزاة وعيشها ومن بلاد العرب التى تهرب إليها بزاة الإفرنج معرة النعمان[٥].

الثانى: إضافة الكثير من المعلومات المفيدة والخبرات لمن يهتم بأمر الصيد ومن ذلك:

- أن الباز إذا كان ذنبه ثلاث عشرة ريشة اصطاد الكركى[٦]، وهذه ملاحظة لطيفة.

---

(١) الاعتبار: ٢٣٢.
(٢) المرجع السابق: ٢٣٠.
(٣) الغلفاء: "أرض فيها كل صغير وكبير من الكلأ ولم ترع من قبل. ولم يقطع" اللسان جـ٥ / ٣٢٨٢
(٤) الاعتبار: ٢٢٥.
(٥) المرجع السابق: ٢١٠، ٢١٨.
(٦) المرجع السابق : ٢٠٤.

- أن الباز الإفرنجى الذى يجلب من البلاد الإفرنجية لا يعمر فى بلاد العرب[1].
- أن الأرنب إذا صيد وكانت فى تمام حملها ولم تلد وأُصيبت فى بطنها أو رحمها إذا شُق رحمها وأُخذت الخرانق منه وأُطمرت فى التراب تحركت وعاشت[2]: فسبحان الخالق بيده الأمر كله، وقد فعل أسامة هذا وجربه.
- إن الباز إذا أطعم لحم السمك انكسر وتقصف ريشه وربما مات[3].
- وسائل نجاة الطيور من الصيد متعددة منها أن الوز له حمية وشجاعة فى الدفاع عن نفسه وجنسه، ما تكاد تصاد منها واحدة حتى يجتمع الوز على الصقور وتقص أجنحتها بمناقيرها حتى يفلت الصيد، والحبارى إذا قُرب منها الصقر نزلت إلى الأرض وسلحت عليه وملأت عينه فيخطأها وتطير[4].

تطور شخصيته:

أبان ابن منقذ فى سيرته عن مراحل تطور شخصيته منذ مولده، ونشأته على الفروسية فى صباه، وممارسته للحرب ومغامراته ومخاطرته بنفسه، وأسفاره فى بلاد عديدة إلى أن حطت به عصا الإقامة فى داره شيخاً واهن العظم.

فقد صور نفسه فى شبابه بهذه الصورة الجسمية حيث كان "طويلاً دقيقاً قوياً مفتولاً يميل إلى النحافة والضمور"[5]، ويقول: "إن

(١) الاعتبار: ٢٠٤.
(٢) المرجع السابق: ٢٠٥.
(٣) المرجع السابق: ٢٠٧.
(٤) المرجع السابق: ٢٢٤.
(٥) المرجع السابق: ٨٨.

ملوك الإفرنج كانوا يرسلون فرسانهم ليشاهدوه لإعجابهم بصورته الجسمية، وأثر هذه الصورة الجسمية القوية فى الحرب والقتال وشدة الطعنات"[1]. وينوه بذلك قائلاً: "وإذا كان الفارس دقيقاً طويلاً كان أعجب لهم"[2].

ووصف نفسه فى هذه المرحلة أيضاً بأنه كثير النشاط والحركة، كثير الحروب مولع بالاشتراك فيها، ماهر فى إصابة العدو، حاذق فى الطعن بالسيوف والحراب، يجيد ركوب الخيل، لا يقيم فى مكان واحد، فسافر إلى مصر ودمشق وبلاد الشام والموصل حتى إنه فى شيزر كان كثير التجوال فيها لا يقيم فى الحصن كالنساء أو الصبيان الصغار، ويتضح هذا فى تصويره لبعض عادات الناس فى شيزر كالقصابين وأصحاب الحوانيت.

أضف إلى ذلك أنه فى شبابه كان فى خدمة السلاطين والملوك والأمراء والقواد، صاحب حظوة لديهم بمشورته ورأيه وعمله، مثل معين الدين أتر، وأتابك زنكى، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الغسيانى، والخليفة الفاطمى الحافظ والوزيرين المصريين ابن السلار وعباس، وكانوا يثقون به فى آداء المهام المدنية والسياسية كالسفارة والمشورة، والمهام العسكرية مثل تكليفه بقيادة بعض الحملات لرد الصليبيين عن مدن فلسطين.

ولا ينسى فى هذا التطور فى مرحلة شبابه أن يقارن بينه وبين نظرائه من الشباب، فيقارن بينه وبين ابن عم له اسمه (شبيب) الذى ولد فى العام نفسه الذى ولد فيه أسامة، وتربّا ونشأ معاً فى حصن شيزر يلعبان ويمرحان إلا أن أسامة نشأ على حب الفروسية والقتال

(١) الاعتبار: ٨٨.
(٢) المرجع السابق: ٨٨.

والمخاطرة أما ابن عمه فكان جباناً يملؤه الرعب والخوف من ذكر المعارك ومشاهداتها، ويفر ويبتعد عن مواطن الحروب، يشاهد المقاتلون فى طرقات شيزر بعد انتهاء المعارك وكانت أمه توبخه على عدم مشاركته فى القتال. يقول ابن منقذ فى ابن عمه هذا: "وهو تربى ولِدَتى ولدت أنا وهو فى يوم واحد إلا أنه ما باشر الحرب وأنا كنت قطبها"(١).

أما فى مرحلة شيخوخته فانفرد فى داره بحصن كيفا غريباً مقيماً على الصبر والذكريات، وقد أعجزه الكبر عن خدمة السلاطين فقطع أسبابه عنهم، ولم يعد له حاجة فى نعمهم، وقد ابتعد عن أبوابهم حياءً ومكرمة بمحض حريته مع أنهم لم يغلقوا بابا من دونه، فهو يعرف أنه ليس للشيخ الكبير سوق رائجة لديهم، مع بذلهم الود فى طلبه، إلى أن استجاب لدعوة السلطان صلاح الدين الأيوبى الذى دعاه عن طريق المكاتبة بعد أن حرر بيت المقدس، وقد رأى فيه القائد الفاتح الذى أراح المسلمين وأزاح عنهم غمة الصليبيين بعد عشرات من السنين فى القتال بينهم.

ويرسم لنفسه هذه الصورة فى الكبر بعد أن بلغ التسعين حين "صار كالجواد العلاف لا الجواد المتلاف، ولصق من الضعف بالأرض ودخل من الكبر بعضه فى بعض"(٢). فهو يصف نفسه بالانحناء والقصر وأن ما كان يتمتع به من الطول فى الشباب انقضى أيامه، حتى إنه لا يقدر على حمل السيف أو الصلاة واقفاً.

وقد جاءت هذه الأبيات له فى الاعتبار تكشف عن مراحل تطوره. يقول(٣):

---

(١) الاعتبار: ١٤٤.
(٢) المرجع السابق: ١٧٩.
(٣) المرجع السابق: ١٨٢ لم تأت فى الديوان.

مع الثمانين عاث الدهر فى جلدى ∴ وساءنى ضعف رجلى واضطراب يدى
إذا كتبت فخطى جد مضطرب ∴ كخط مرتعش الكفين مرتعد
فأعجب لضعف يدى عن حملها قلما ∴ من بعد حطم القنافى لبة الأسد

ويقول[1]:

أودى صلاتى قاعدا وسجودها ∴ علىّ إذا رمت السجود عسير

المرأة (بطولات النساء):

عقد أسامة فى سيرته باباً للحديث عن بطولات النساء، حيث أشاد ببطولاتهن فى القتال فى أكثر من حادثة، وهو يذكرهن بجانب بطولة الرجال، لأنه يريد أن تتكامل صورة الإنسان العربى بقسميها، وحتى لا يستهان بهن فى الحرب، وهو يشيد بهن أيما إشادة مثل قوله: "وما ينكر للنساء الكرام الأنفة والنخوة والإصابة فى الرأى"[2]، وقوله: "فهذه النخوة أشد من نخوات الرجال"[3]، وقوله: "لعمرى إنهن إمهات الرجال"[4] وهو فى قص بطولاتهن يأتى بأمثلة لنساء أسرته ونساء عربيات أخريات.

منها روايته عن امرأة عمه يوم أن هاجمت الإسماعيلية حصن شيزر والرجال غائبون، فإذا بها تلبس زردية وخوذة وتتأبط سيفا وترساً، وتقود الدفاع عن الحصن ويرتاع أسامة من منظرها، وتلوم ابنها الذى خاف من القتال، وتقول له: "بئس ما تفعل أى عيش يكون عيشك إذا افتضحت فى أهلك وانهزمت عنهم ؟ اخرج قاتل عن أهلك حتى تقتل بينهم ومنعته من الهرب"[5]. فهى تلقى به فى أتون الحرب

(١) الاعتبار: ١٨٢ لم ترد فى ديوانه.
(٢) المرجع السابق: ١٤٥.
(٣) المرجع السابق: ١٤٥.
(٤) المرجع السابق: ١٤٧.
(٥) المرجع السابق: ١٤٤.

مع وجله وخوفه لا تخشى عليه الموت، وكان لذلك تأثير جيد عليه؛ إذ أصبح من الفرسان البارزين.

وأم أسامة توزع سلاحه على من حضرها من الرجال والفتيان فى هجوم مفاجئ على الحصن وقت غياب الرجال، وتفضل لابنتها الموت على الأسر فى يد الإفرنج وتقوم بدور القائد فى غياب زوجها[1].

وهذه العجوز وهى من جوارى جده قد طعنت فى السن، إذ بها تتلثم فى القتال، وتأخذ سيفاً، وتخرج إلى القتال وتشغل الإفرنج مضحية بنفسها حتى يصعد الجنود أعلى الحصن ويتكاثرون لمحاربة الإفرنج[2].

وهذه المسلمة التقية الصالحة تقتل زوجها الخائن حينما علمت أنه كان يُسلم المسلمين إلى الإفرنج لقتلهم، ويبالغ فى إيذائهم وأخذ مالهم وسفك دمائهم، فترسل هذه المرأة إلى أخيها من بلاد بعيدة وتخفيه فى البيت وتجتمع هى وهو على قتل زوجها نصرة لله والمسلمين ويعلق أسامة على هذا قائلاً: "غضبت للمسلمين مما كان يفعل بهم هذا الكفار، فأراحت الناس من هذا الشيطان"[3].

وهذه المرأة البطلة تخرج فى الحرب مع الناس فتأخذ إفرنجيا وتدخله دارها ثم تخرج فتأخذ غيره وهكذا وتأخذ ما معهم من أسلحة وسلب، ثم تدعو جيرانها وقومها فيقتلونهم.

وأسامة فى حديثه عن بطولات النساء العربيات يذكر ذلك بلغة الفخر بهن، قاصداً إشعال روح البطولة فى المجتمع كله فهو يريد ألا

(١) الاعتبار: ١٤٥.
(٢) المرجع السابق: ١٤٨.
(٣) المرجع السابق: ١٤٨.

تقتصر الشجاعة على الرجال فقط بل على النساء أيضاً فى وقت عصيب عاشه المجتمع العربى والإسلامى فى مواجهة أعنف الحملات الصليبية،وكم دبر الإفرنج الهجوم على الثغور والقرى فى غيبة الرجال. وكم حرقوا وفتكوا بالنساء والصغار بل والبهائم والدواب، فأراد أن يلتقى الإفرنج ببطولات نسائية لا تقل ضراوة عن بطولة الرجال.

والحق أنه كان منصفاً فى حديثه عن بطولة المرأة، حيث يحكى شيئاً من بطولة المرأة الإفرنجية أيضاً – وإن كان قليلاً جدا – لأنه يذكر فى مواطن أخرى فضائحهن الجنسية. فهذه المرأة الإفرنجية[1] تدافع عن زوجها الصليبى فى بيت المقدس بكوز خشبى فى يديها، وتضرب به فارساً عربياً فى وجهه لما قصد زوجها، وإذا بطعنة الكوز تكون أشد من ضربة السيف فى وجهه، وتبقى وسماً وأثراً من حاجبيه الأيسر إلى حد شعر رأسه يلازمه طيلة عمره دلالة على شجاعة هذه الإفرنجية وقوتها.

وسمات المرأة العربية البطلة التى ذكرها: هى امرأة مجاهدة ترفض الغزو الإفرنجى، وتعن الثورة والحرب مع الرجال عليهم ويؤدى بها الأمر أن ترمى فلذات أكبادها من شاهق الجبل إيثاراً على الأسر بيد النصارى الروم، وهى تعمل على تنظيم حروب نسائية فى غياب الرجال فتضرب بالسيف وتتلثم وتخطف الجنود الإفرنج، وترى قتل أبنائها واستشهادهم ألذ من بقائهم فى عار الهزيمة، ومع ما تتسم به من رقة تجعلها ليست أهلا للقتال الوحشى، فإن أسامة جعلها تحتفظ بكثير من مقومات العنف والقوة مثل الطعن والركل والجرى ومهارة استخدام السيف والترس، وقد استطاع أن يدلل على رباطها فى ساحة الحرب، فكان منها الجريحة والشهيدة والصابرة فى البأس، وهو لم يفقدها أهم سماتها من إنوثة وحس لطيف.

(١) الاعتبار: ١٤٩.

الإنسان الإفرنجى

فى حديث أسامة عن الإنسان الإفرنجى استطاع أن يبين أثر الحضارة العربية فى الإفرنج وتفوقها عليهم حيث كانوا يعيشون فى جهل وظلام، فهو يقارن بين الحضارة العربية وحضارة الإفرنج فى عدة أشياء منها:

- العرب يرسلون الأطباء لعلاج الإفرنج، فيروى أن عمه أمير شيزر يكتب إليه صاحب (المنيطرة) الإفرنجى -وهو حصن بالشام- أن ينفذ إليه طبيباً يداوى المرضى، فيرسل إليه طبيباً اسمه (ثابت) يعالج مرضاهم[1]، وهذا يبين قمة الخلق السمح عند المسلمين، لدرجة أنهم يرسلون الأطباء لمعالجة المرضى من أعدائهم الذين يحاربونهم، وفى مقابل ذلك نجد أن اسرى المسلمين عند الإفرنج، يُعذبون، ويُذبحون وتُفقأ أعينهم.
- أن كل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقاً ممن انتقل منهم إلى بلاد المسلمين وعاشروهم، فهذا الرجل الإفرنجى الذى اعترض أسامة فى صلاته كان قريب عهد ببلاده الإفرنجية[2]. يقول ابن منقذ: "فمن جفاء أخلاقهم -قبحهم الله- أننى كنت إذا زرت بيت المقدس دخلت إلى المسجد الأقصى، وفى جانبه مسجد صغير قد جعله الإفرنج كنيسة، فكنت إذا دخلت المسجد الأقصى، وفيه الداوية وهم قوم من الإفرنج يحبسون أنفسهم لجهاد المسلمين ويمنعون أنفسهم من النكاح، وهم أصدقائى يخلون لى ذلك المسجد الصغير أصلى فيه، فدخلته يوما فكبرتُ ووقفتُ فى الصلاة، فهجم علىَّ واحد من الإفرنج مسكنى ورد وجهى إلى الشرق وقال: كذا صل، فتبادر إليه قوم من

(١) الاعتبار: ١٥٢.
(٢) المرجع السابق: ١٥٣.

الداوية أخذوه وأخرجوه عنى، وعدت أنا إلى الصلاة، فاغتفلهم وعاد هجم علىَّ ذلك بعينه ورد وجهى إلى الشرق، وقال: كذا صل، فعاد الداوية دخلوا إليه وأخرجوه واعتذروا إلىَّ وقالوا: هذا غريب وَصَل من بلاد الإفرنج فى هذه الأيام وما رأى من يصلى إلى غير الشرق"[1].

فهذا الإفرنجى جاء من بلاده ولم ير الصلاة إلى القبلة إلا فى بلاد العرب أول مرة، فكان جافياً فى سلوكه، وتصرفه لا يدرى كنه العبادة الإسلامية ولا يعرف عنها شيئاً بينما غيره من الإفرنج الذين طال بهم العهد فى بلاد الإسلام لم يفطوا مثله.

- من الإفرنج قوم تبلدوا – يقصد أنهم عاشوا فى البلاد العربية وفارقوا طباعهم الإفرنجية – وعاشروا المسلمين فهم أصلح من القريبى العهد ببلادهم[2]. ومن ذلك قصة هذا الإفرنجى الذى لا يأكل الخنزير مثل المسلمين، يقول أسامة: "نفذت صاحبا إلى أنطاكية فى شغل، وكان بها الرئيس تادرس بن الصفى، وبينى وبينه صداقة، وهو نافذ الحكم فى أنطاكية، فقال لصاحبى يوما: قد دعانى صديق لى من الإفرنج، تجئ معى حتى ترى زيهم، قال فمضيت معه فجئنا إلى دار فارس من الفرسان العتق، الذين خرجوا فى أول خروج الإفرنج، قد اعتفى من الديوان والخدمة، وله بأنطاكية ملك يعيش منه، فأحضر مائدة حسنة وطعاما فى غاية النظافة والجودة، ورآنى متوقفاً عن الأكل، فقال: كُلْ طيب النفس، فأنا ما آكل من طعام الإفرنج ولى طباخات مصريات، ولا يدخل دارى لحم خنزير، فأكلت وأنا محترز وانصرفنا"[3].

---

(١) الاعتبار: ١٥٣.
(٢) المرجع السابق: ١٥٩.
(٣) المرجع السابق: ١٥٩.

فهذا الرجل الإفرنجي ما كان له هذا لولا معاشرته للمسلمين فى بلادهم فهو على خلاف الإفرنج: طعامه نظيف جيد، يدرك أن العربى المسلم متوقف عن الطعام لشكه فى لحم الخنذير المطبوخ، فيعرِّفه أنه إفرنجى لكنه ليس مثلهم، فهو لا يدخل طعامهم بيته ولا يدخل لحم الخنزير داره، وقد تحضر مثل العربى المسلم فاتخذ طباخات جياد يصنعن له الطعام، وهذا يبين مدى أثر الحضارة الإسلامية والعربية فى هؤلاء الإفرنج الذين عاشوا فى بلاد العرب.

لكن أسامة لا يلبث أن يقرر أن هذا الأثر فى هذا الإفرنجى لا يُقاس عليه، فطباعهم المحمودة نادرة لا تقاس عليها بقية أخلاقهم الشاذة.

- لا دين لهم يتنصرون بعد إسلامهم، فيروى قصة هذه العجوز الإفرنجية التى لجأت إلى دار والده ومعها ابنتها وابنها وكان يدعى (راؤول) حيث أسلم هذا الابن، وهو فى رعاية والد أسامة، وحسن إسلامه فيما يروى من أفعاله من صلاة وصيام، وقد زوجه بامرأة صالحة، وقام بكل ما يحتاجه لبيته وعرسه. ورزق ولدين كبرا، إلا أنه أخذ ولديه وأمهما غفلة، وأصبحوا بديار الإفرنج وتنصر هو وولداه بعد إسلامه وصلاته[1].

وقصة هذا الإفرنجى الذى جذب الأمير معين الدين أنز من يديه وهو ببيت المقدس وذهب به إلى صورة طفل على الحائط، وأشار إليها وقال له: الله طفلا[2] – تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا – وهذه الصورة يعتقدون أنها صورة المسيح.

(١) الاعتبار: ١٥١ بتصرف.
(٢) المرجع السابق: ١٥٤.

- أنهم قوم لا يأنسون ولا يعاشرون إلا بنى جلدتهم، ولا يألفون لغير جنسهم، فهذه الإفرنجية تؤثر أن تكون زوجة إسكاف حقير بعد أن كانت زوجة أمير عربى مسلم، فأسامة يحكى هذه القصة[1] الطريفة. غنم والده عدداً من الجوارى قد سباهم، فرأى منهم جارية مليحة شابة فأصلحها وأحسن إليها ثم بعثها إلى الأمير شهاب الدين صاحب قلعة (جعبر) فاتخذها زوجة له وولدت ابنا له سماه (بدران) فجعله وليا لعهده، ومات صاحب قلعة جبعر وتولى بدران البلد والرعية، وأمه آمرة ناهية مكرمة فى القلعة إلا أنها واعدها قوم من الإفرنج من بنى جنسها الذين حنت إليهم، فتدلت من القلعة بحبل إليهم، ومضوا بها إلى ثغر من ثغور الإفرنج وهى راضية، فتزوجت بإفرنجى إسكافى بعد أن كانت زوجة أمير عربى، وابنها صاحب القلعة آنذاك، وهذا من اللؤم وخسة الطباع والحنين إلى الجنس.
- ليس للإفرنج نخوة أو غيرة جنسية، ويتحدث أسامة عنهم بأنهم قوم "ليس عندهم شئ من النخوة والغيرة، يكون الرجل منهم يمشى هو وامرأته، يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة، ويعتزل بها ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث، فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى"[2]. وهذا مما شاهده وعاينه أسامة بنفسه.

وهذه الحكاية[3] التى يرويها بأن الرجل الإفرنجى يدخل إلى داره ويلجأ إلى فراشه فإذا رجل إفرنجى آخر نائم في فراشه ومعه زوجته فلا ينكر عليه، وأبلغ ما يفعله أن يتركهما فى الفراش

(١) الاعتبار: ١٥٠بتصرف.
(٢) المرجع السابق: ١٥٤.
(٣) المرجع السابق: ١٥٤.

ويخرج ولا تتحرك نخوته على عرضه وشرفه، وكيف يزنى بزوجته على مرأى منه ؟!

وهذا الإفرنجى الذى يصحب زوجته إلى حمام الرجال وتتجرد من ملابسها ويقوم الحمامى بتنظيفها ونزع شعرها أمام الرجال، ولا تتحرك له غيرة عليها[1].

- تخلف الإفرنجى العلمى، ويعرض أسامة تخلفهم فى الطب مقارنا بينهم وبين مهارة أطباء العرب، وهذه القصة يرويها ليبين حذق الطبيب العربى يقول: "لحقنى برد عظيم وقشعريرة من غير حُمىً وعلىَّ الثياب الكثيرة والفرو. ومتى تحركت فى جلوس ارتعدت، وقام شعر بدنى، فأحضرت الشيخ أبا الوفا تميماً الطبيب، فشكوت إليه ما أجد فقال: احضروا لى بطيخة هندى، فأحضرت، فكسرها، وقال لى كُل منها ما استطعت قلت: يا حكيم أنا فى الموت من البرد والزمان بارد كيف أكل هذه مع بردها ؟ قال كُل كما أقول لك ! فأكلتُ. فما انتهى أكلى منها حتى عرقت وزال ما كنت أجده من البرد فقال لى: الذى كان بك من غلبة الصفراء ما كان من برد حقيقى"[2].

ويحكى حكاية أخرى عن نباهة الأطباء العرب يقول: "كان فى حلب امرأة من وجوه النساء، لحقها برد فى رأسها فكانت تعمل عليه القطن العتيق والقلنسوة والمخملة والمناديل حتى تصير كأن على رأسها عمامة كبيرة وهى تستغيث من البرد، فأحضرت ابن بطلان وشكت إليه مرضها، فقال: حصلى فى غد خمسين مثقالاً من كافور رياحى عارية أو مُكرىً فهو يعود إليه بأسره، فحصلت له الكافور، ثم

(١) الاعتبار: ١٥٥.
(٢) المرجع السابق: ١٩٨.

أصبح ألقى كل ما على رأسها وحشا شعرها بذلك الكافور ورد على رأسها ما كان عليه من الدثار وهى تستغيث من البرد، فناصت لحظة وانتهت تشكو الحر فى رأسها، فألقى عنها شيئاً شيئاً مما كان على رأسها حتى بقى على رأسها قناع واحد ثم نفض شعرها من ذلك الكافور وذهب عنها البرد وصارت تتقنع بقناع واحد"[1].

فهو يدلل على لطف الأطباء العرب وحذقهم فى فهم الداء ووصف الدواء، بل إنه يقص ما يدل على أمانتهم وعدم تربحهم بمرض المريض، فقد كان لجد أسامة ولد ظهر عليه مرض فأشفق عليه وأحضر ابن بطلان الطبيب الذى وصف المرض، وكان يحسبه الجد عظيماً وهدأ الطيب من روعه وهمه وقال له ما أقول هو الصدق وإننى لا أريد أن أتسوق وأتربح عليك[2].

ويتضح بهذه المقارنة تفوق الحضارة العربية علماً وعملاً وسلوكا فقد ملأ نور علمهم وهديهم العالم حولهم حتى إنه وصل إلى أعدائهم، فقد تقدموا فى الطب، ومهروا فيه وعالجوا الإفرنج قبل أنفسهم، وتعاملوا معهم بروح الدين والإنسانية، وانظر إلى الإفرنج فهم متخلفون لا يعرفون شيئاً عن العلم، وادعاء بعضهم الطب كان فيه هلاك لمن يعالج على إيديهم.

واترك هذه القصة لتكشف عن حقيقة الطب والعلم عندهم وانقلها كما جاء بها ابن منقذ، يقول: "ومن عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة كتب إلى عمى يطلب منه إنفاذ طبيب يداوى مرضى من أصحابه، فأرسل إليه طبيباً، فما غاب عشرة أيام حتى عاد، فقلنا له: ما أسرع ما داويت المرضى؟ قال أحضروا عندى فارساً قد طلعت فى

(١) الاعتبار: ١٩٨.
(٢) المرجع السابق: ١٩٧.

رجله دملة، وامرأة تمشطها نشاف، فعملتُ للفارس لبخة ففتحت الدملة وصلحت، وحميتُ المرأة ورطبتُ مزاجها. فجاءهم طبيب إفرنجى فقال لهم: هذا ما يعرف شيئاً يداويهم، وقال للفارس: أيما أحب إليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟ قال أعيش برجل واحدة. قال: أحضروا لى فارساً قوياً وفأساً قاطعا، فحضر الفارس والفأس، وأنا حاضر، فحط ساقه على قرمة خشب، وقال للفارس: اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها، فضربه، وأنا أراد ضربه واحدة ما انقطعت. ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ومات من ساعته. وأبصر المرأة فقال: هذه المرأة فى رأسها شيطان قد عشقها، احلقوا شعرها، فحلقوه، وعادت تأكل من مأكلهم الثوم والخردل، فزاد بها النشاف، فقال: الشيطان قد دخل فى رأسها. فأخذ الموس وشق رأسها صليبا وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح، فماتت فى وقتها، فقلتُ لهم بقى لكم إلىَّ حاجة؟ قالوا: لا، فجئت وقد تعلمتُ من طبهم ما لم أكن أعرفه"[1].

ويتضح من القصة أسلوب السخرية والتهكم: لأنهم لا يستطيعون مداوة دملة صغيرة فى رجل فارس، ولا نشاف اعترض مزاج امرأة، بينما أطباء المسلمين تجاوزوا ذلك إلى مراحل حضارية متقدمة لعلاج كثير من الأمراض الظاهرة والباطنة وأن الإفرنج لا يصدرون فى طبهم عن علم أو حكمة أو تدبر، والذى يلجأ إلى طبهم كالمستجير من الرمضاء بالنار.

ومن عجائب طب الإفرنج ما يرويه صاحب الاعتبار عن أحدهم فى هذه القصة التى أنقلها بلا تعليق يقول: "حدثنى كليام دبور صاحب طبرية، وكان مقدماً فيهم، واتفق أنه رافق الأمير معين الدين -

(١) الاعتبار: ١٥٢.

رحمه الله – من عكا إلى طبرية، وأنا معه، قال: كان عندنا في بلادنا فارس كبير القدر، فمرض وأشرف على الموت. فجئنا إلى قس كبير من قسوسنا قلنا: تجئ معنا حتى تبصر الفارس فلانا ؟ قال: نعم ومشى معنا ونحن نتحقق أنه إذا حط يده عليه عُوفي، فما رآه قال: أعطونى شمعاً، فأحضرنا له قليل شمع، فلينه وعمله مثل عقد الإصبع، وعمل كل واحدة في جانب أنفه، فمات الفارس، فقلنا له: قد مات ! قال: نعم! كان يتعذب سددت أنفه حتى يموت ويستريح"[1].

القضاء عندهم: ويسخر أسامة من القضاء عندهم ويبين مدى تخلفهم البالغ في محاكماتهم سواء في إثبات التهمة والجريمة أو صدور الحكم، أو حلول العقاب بالمجرم، فيقص هذه القصة التي شهدها في محاكماتهم يقول: "وشهدت يوماً بنابلس وقد أحضورا اثنين للمبارزة، وكان سبب ذلك أن حرامية من المسلمين كبسوا ضيعة من ضياع نابلس فاتهموا بها رجلاً من الفلاحين وقالوا: هو دل الحرمية على الضيعة، فهرب، فنفذ الملك فقبض أولاده، فعاد إليه وقال: أنصفني ! أنا أبارز الذى قال عنى إنى دللت الحرامية على القرية، فقال الملك لصاحب القرية أحضر من يبارزه فمضى إلى قريته إلى رجل حداد فأخذه وقال له: تبارز!! فشاهدت هذا الحداد وهو شاب قوى إلا أنه قد انقطع: يمشى ويجلس يطلب ماءً يشربه. وذلك الآخر الذى طلب البراز شيخ إلا أنه قوى النفس يرتجز وهو غير محتفل بالمبارزة، فكان الشيخ يلز ذلك الحداد وهو يتأخر حتى يلجئه إلى الحلقة، ثم يعود إلى الوسط وقد تضاربا حتى بقيا كعمود الدم، فطال الأمر بينهما، ونفع الحداد إدمانه لضرب المطرقة وأعيا ذلك الشيخ، فضربه الحداد فوقع ووقعت عصاه تحت ظهره فبرك عليه الحداد يداخل أصابعه في عينه ولا يتمكن من كثرة الدم من

(١) الاعتبار: ١٥٧.

عينيه، ثم قام عنه وضرب رأسه بالعصا حتى قتله، فطرحوا فى رقبته حبلا وجروه شنقوه، وهذا من جملة فقههم وحكمهم![1].

بل إن أسامة يطلق على هذه المحاكمات (حكم الفرنج) وفى قصة أخرى يبين كيف يميزون بطرقهم الملعونة البرئ من المذنب يقول: "مضيت مرة مع الأمير معين الدين – رحمه الله – إلى القدس فنزلنا نابلس، فخرج إلى عنده رجل أعمى وهو شاب مسلم، فسألت عنه فخبرت أن أمه كانت مزوجة لرجل إفرنجى فقتلته وكان ابنها يحتال على حجاجهم ويتعاون هو وأمه على قتلهم، فاتهموه بذلك وعملوا له حكم الإفرنج: جلبوا بتّية عظيمة وملأوها ماء وعرضوا عليها دف خشب وكتفوا ذلك المتهم وربطوا فى أكتافه حبلا ورموه فى البتية، فإن كان بريئاً غاص فى الماء فرفعوه بذلك الحبل، لا يموت فى الماء، وإن كان له الذنب ما يغوص فى الماء، فحرص ذلك لما رموه فى الماء أن يغوص فما قدر فوجب عليه حكمهم –لعنهم الله– فكحلوه"[2].

فكيف تتميز شخصية المجرم من البرئ فى هذه المحاكمة، إن دل ذلك فإنما يدل على سخافة منطقهم وبلادة فلسفتهم، وغياب عقلهم، فبالله أى عدل هذا فى محاكمة المتهم ؟!، وأى قضاء هذا الذى يكون من نصوصه إلقاء المتهم فى الماء ورجله ويده مصفدة بالقيد؟ وتكون نجاة المتهم دليلاً على براءته، وإذا ثبتت براءته، فكيف ينجو من الماء، وماذا يبقى للإنسان البرئ؟ بعد أن يسبق السيف العذل. إن هذا هو الزيف والجهل بعينه.

(١) الاعتبار: ١٥٨.
(٢) المرجع السابق: ١٥٨، ١٥٩.

بينما فى ذلك الوقت كانت الحضارة الإسلامية على النقيض من هذا بقضائها المعروف الذى يعتمد على النصوص القرآنية الربانية العادلة التى لها طرقها وأدواتها فى إجراء المحاكمات بدأ من ثبوت الدليل إلى إقامة الحد أو القصاص أو التعزير فى ظل عدالة ربانية وإنسانية من القاضى والخليفة اللذين لم تغب عنهما المحافظة على آدمية وإنسانية وحرمة من يقام عليه الحد أو القصاص، ولذلك أطلق على كثير من حكام المسلمين فى هذا الوقت لقب الملك العادل، والحاكم بأمر الله، وقد بهر القضاء الإسلامى هؤلاء الإفرنج الذين كان منهم من يفضل البقاء فى ديار الإسلام فى المشرق على العودة إلى بلاده.

ومن عجيب أحكام الإفرنج أن الرعاع والعامة والفرسان عندهم هم أصحاب الرأى وأهل القضاء والحكم، وأن الملك عندهم لا يستطيع أن يغير أو ينقض أحكامهم، وقد عاش أسامة بنفسه قصة يرويها يقول: "وقد حاكمتهم مرة على قطعان غنم أخذها صاحب بانياس وبيننا وبينهم صلح وأنا إذ ذاك بدمشق. فقلت للملك فلك بن فلك ملك القدس هذا تعدى علينا وأخذ دوابنا، وهو وقت ولادة الغنم. فولدت وماتت أولادها، فقال الملك لستة من الفرسان: قوموا اعملوا له حكما. فخرجوا من مجلسه واعتزلوا وتشاوروا حتى اتفق رأيهم كلهم على شئ واحد، وعادوا إلى مجلس الملك.فقالوا:قد حكمنا أن صاحب بانياس عليه غرامة ما أتلف من غنمهم، فأمر الملك بالغرامة، وهذا الحكم ما يقدر الملك ولا أحد من متقدمى الإفرنج يغيّره ولا ينقضه"[1].

لعبهم فى أعيادهم: والإفرنج قوم همج لا يعرفون نظاما وليس لديهم آداب فى اللعب ولا المبارزة والسباق ويقبلون على

(١) الاعتبار: ٨٨.

القذر فى أعيادهم، ويقص أسامة هذا المشهد الذى حضره فى عيد من أعيادهم، وكيف يكون السباق واللعب عندهم يقول: "حضرت بطبرية فى عيد من أعيادهم وقد خرج الفرسان يلعبون بالرماح، وقد خرج معهم عجوزان فاتيتان أوقفوهما فى رأس الميدان، وتركوا فى رأسه الآخر خنزيراً سمطوه وطرحوه على صخرة، وسابقوا بين العجوزين ومع كل واحدة منهن سرية من الخيالة يشدون منها، والعجائز يقمن ويقعن على كل خطوة وهم يضحكون حتى سبقت واحدة منهن، فأخذت ذلك الخنزير فى سبقها"[1].

الجانب الدينى فى سيرته:

أملى ابن منقذ سيرته فى الكبر،ولذلك فإن عاملى الزهد والوحدة يتدخلان فى هذا الجانب يقول:"أعجزنى وهن السنين عن خدمة السلاطين، فهجرت مغشىً أبوابهم، وقطعت أسبابى عن أسبابهم"[2].

وهو يفرد باباً دينياً جاء فيه ببعض أخبار الصالحين سواء مما حضره وشاهده بنفسه أو مما سمعه وحُدّث به، ويمكن التماس الأغراض الحقيقية من وراء إيراد هذا الباب فيما يلى:

- الدعوة إلى الصلاح والتقوى فى وقت تكالب الإفرنج فيه على الأمة الإسلامية والعربية،والقرب من الله تعالى سلاح من أسلحة النصر عليهم.
- إن إخلاص العبد لربه يفتح المغاليق له، ويبصره بالأسرار.
- دعاء الصالحين والمتقين مستجاب، فما بالك من سؤال الله النصر على الإفرنج، وهم أعداؤه وأعداء الموحدين به.
- الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر باب من أبواب النصر على الإفرنج.

---

(١) الاعتبار: ١٥٧.
(٢) المرجع السابق: ١٨٣.

- إن النصر على الإفرنج، لا سبيل إليه فى العدة والعتاد فحسب، بل له سُبل أخرى وأشدها الإيمان الراسخ الذى يدعمه العمل.
- من دواعى النصر على الإفرنج عدم التعلق بأهداب الدنيا وأن الآجال مكتوبة موقوتة لا ينقصها القتال.
- إن باب الإيمان والصدق سلاح لا يملكه الإفرنج، وهو لدى المسلمين له أثره فى النصر عليهم.
- الروح الدينية لا تخفى فى سيرته، فمن مظاهرها: أنه يؤكد من أول وهلة على اجتماع الروم والإفرنج[1] على قتال المسلمين، وانتفائهم للثغور الضعيفة، وأنهم يد واحدة، ويتعاون معهم الباطنية، فليت المسلمين يكونون عليهم يداً واحدة مثلهم.
- ضعف ولاة المسلمين فى ولاياتهم، يجعل الإفرنج يتربصون بهم وتكون فرصة لغزو بلادهم.
- يدعو جنود المسلمين إلى قتال الإفرنج من أجل الدين لا الدنيا[2]، ويذكر عدداً من هؤلاء الذين قاتلوا من أجل الغرض الدينى مثل أخيه الشهيد عز الدولة أبى الحسن الذى استشهد فى عسقلان.
- لا يعزل الجانب الدينى عن الدنيوى، فيذكر أن قوة المسلمين المادية وتأييد الله ونصره لهم، لابد أن يتكاملا معاً.
- يؤكد على المعانى الدينية فى أكثر أخباره وقصصه[3]، وينتهى إلى نتيجة هى: إن عواقب البغى وكفر نعمة الله من الخلفاء والولاة والوزراء تؤدى إلى زوال حكمهم، وأن الخلف لو اتعظ بما جرى للسلف ما كانت عواقب الخزى والهزيمة. ويضرب

(١) الاعتبار: ٢٦، ١٣٨.
(٢) المرجع السابق: ٣٩، ٤٠.
(٣) المرجع السابق: ٥٢.

مثالاً بعباس الوزير المصرى الفاطمى الذى لم يتعظ بما جرى لمن قبله من الوزراء ومنهم الأفضل رضوان.

- يؤكد على معانى العبرة والعظة فى كثير من قصصه فى النصر والهزيمة وشئون الحياة.
- عناية الله لفرسان العرب، فكان منهم من يطعن بالرمح فيخرج من صدره، ويمزق أضلاعه، ومنهم من كان يشق بطنه، ومنهم من يضرب بالقوس فى عينيه فلا يموتون، ويعودون للحرب كسيرتهم الأولى.
- أن النصر من عند الله دائماً لا بكثرة نفير ولا نصير.
- التركيز فى شخصية صلاح الدين الأيوبى على الجانب الدينى حيث رأى فيها أكبر الأثر فى إصلاح شأن المسلمين والنصر على الإفرنج.

فمن أخبار الصالحين التى يدعم بها سيرته هذه البصيرة للشيخ أبى عبد الله محمد الطبرى ببغداد حيث حضرته امرأة فقالت: "يا سيدى إنك كنت ممن شهد فى صداقى، وقد فقدتُ كتاب المهر وأسألك أن تتفضل علىَّ تقيم الشهادة بمجلس الحكم، فقال: ما أفعل حتى تأتينى بحلاوة، فوقفت المرأة وهى تظن أنه يمزح بقوله، فقال: لا تطيلى، لا أمضى معك إلا أن تأتينى بحلاوة، فمضت ثم عادت، فأخرجت من جيبها قرطاساً فيه حلاوة يابسة، فتعجب أصحابه من طلبه الحلاوة مع زهده وتعففه، فأخذ القرطاس وفتحه، ورمى بالحلاوة، ونظره فإذا هو كتاب صداق المرأة الذى فقدته، فاستعظم من حضره ذلك. فقال: كلوا الحلال"[1].

(١) الاعتبار : ١٨٥.

ومما حُدث به أيضاً هذه العجيبة يقول: "حدثنى الشيخ أبو القاسم قال: قدم علينا رجل شريف من أهل الكوفة فحدثنا قال حدثنى أبى قال: كنت أدخل على قاضى القضاة الشامى الحموى، فقال لى يوماً: أنا أحب أهل الكوفة لشخص واحد منهم. كنت بحماة وأنا شاب وقد توفى بها عبد الله بن ميمون الحموى، فقالوا له: أوص، فقال: إذا أنا مت وفرغتم من جهازى أخرجونى إلى الصحراء، ويطلع إنسان على الربية التى تشرف على المقابر وينادى، يا عبد الله بن القبيس مات عبد الله بن ميمون، فأحضرد وصل عليه، فلما مات فعلوا ما أمرهم به، فأقبل رجل من الجانب الذى نادى منه المنادى، وجاء حتى صلى عليه، والناس قد بُهتوا لا يكلمونه فلما فرغ من الصلاة انصرف راجعاً من حيث جاء، فتلاوموا إذا لم يتمسكوا به ويسألونه. فسعوا فى أثره ففاتهم ولم يكلمهم كلمة واحدة"[1].

ومما حُدث به هذه القصة التى تحكى أمر رجل بالمعرة يشعر بموت آخر فى مكة يقول: "حدثنى الشيخ أبو القاسم أن رجلا كان يعمل فى بستان لمحمد بن مسعر، -رحمه الله- أتى أهله وهم جلوس على أبواب دورهم بالمعرة فقال: سمعت الساعة عجبا!! قالوا: وما هو ؟ قال مربى رجل معه ركوة طلب منى فيها ماء، فأعطيته فجدد وضوءه، فأعطيته خيارتين فأبى أن يأخذهما. فقلت: إن هذا البستان نصفه لى بحق عملى ولمحمد بن مسعر نصفه بالملك، فقال أحج العام؟ قلت نعم. قال: البارحة بعد انصرافنا من الوقفة مات وصلينا عليه، فخرجوا فى أثره ليستفهموا منه فرأود على بعد لا يمكنهم لحاقه. فعادوا وورخوا الحديث فكان الأمر كما قال"[2].

---

(١) الاعتبار: ١٨٦.

(٢) المرجع السابق: ١٨٧.

وفى باب الصيد يمزجه بالروح الدينية، فهو يذكر اشتغاله وإخوته ورجاله وخدامه فى أوقات الصيد بحفظ القرآن الكريم وقراءته وكان والده يستدعيهم، فيسألهم عما حفظوا، كذلك كان يطلق على صيد الخنازير قتلا لا صيداً؛ لنجاستها.

أسامة والفرق الإسلامية:

لم ينس أسامة أن يقدم بجانب الصراع بين الإفرنج والعرب صراعاً آخر بين المسلمين السنة الذين يمثلون الكتلة الغالبة فى العالم الإسلامى وبعض الفرق الإسلامية – مثل الإسماعيلية – التى هددت وحدة استقرار المشرق العربى آنذاك، فقد كانت تقوم بالهجوم على ثغور وحصون المسلمين بالشام والفتك بالأبرياء منهم وإراقة دمائهم ومد الإفرنج بكل الوسائل التى تساعد على غزو ديار الإسلام.

فهو يذكر صراحة العديد من المواقع بينه وبين الإسماعيلية وما دار من قتال[1] فى حصن شيزر وما حوله من حصون، فقد كانوا يتسللون الواحد تلو الآخر لعمل مكائد للمسلمين فى ديارهم وحصونهم ويقتلون من يظفرون به ويهمون بالهروب، وكان قوم أسامة غالباً ما يدركونهم وينقذون بنيهم وأهليهم من هذه المكائد ومن أمثلة هذا[2] أن الإسماعيلية كان يختبئون فى الحظائر والاصطبلات ويصدرون أصواتاً غير مفهومة فيتتبع العربى المسلم هذا الصوت ليتحقق منه، فيجذبه الإسماعيلى ويضربه بالسكين فى رقبته ورأسه، بل إنهم كانوا يتربصون بحصن شيزر لعلمهم بقوته وأنه مركز الدفاع وذلك حين يغيب عنه أسامة وأبوه وعمه ورجاله فيهاجمونه، وذات مرة تولت امرأة عمه قيادة الدفاع عن الحصن ضد هؤلاء الإسماعيلية.

---

(١) الاعتبار: ١٨٠.

(٢) المرجع السابق: ١٨١.

بل إنهم كانوا يعاونون الإفرنج فى الاستيلاء على أبراج المراقبة التى فى ثغور بلاد الشام ويقتلون لهم من بها من رجال مسلمين حتى ولو كان فتى صغيراً أو غلاماً يافعاً.

لكن أسامة مع ذلك يذكر قوة والده وعمه فى مواجهة هؤلاء وقتلهم وتحكيم السيوف فى رقابهم هم ومن على رأيهم.

وقد كان الإسماعيلية يسكنون متفرقين فى معرة النعمان، ومعرة نصرين، وأفامية، وسرمين من بلاد الشام ويديرون حرباً داخلية لا تقل خطراً عن حرب الإفرنج الخارجية.

الإنسان والحيوان فى الاعتبار:

أقام ابن منقذ علاقة حميمة بين الإنسان والحيوان بحكم ارتباط الاثنين معاً فى البيئة العربية وتأثير كلاهما فى الآخر، فقد تحدث عن الخيل والأسود والنمور والفهود والسناجب والخنازير ... الخ.

أسامة والخيل:

تكلم أسامة عن الخيل حديثاً ممتعاً وهو بسبيل حديثه عن الحرب، فقد كانت من أساسيات المعارك وعدتها التى لا يمكن الاستغناء عنها، فهو فى كل معركة خاضها يذكر أنه كان تحته حصان جيد أو ردئ، فهو حارب على الجيد منها وعرف قيمتها والنصر عليها. وقاتل على الردئ منها وكانت سببا فى جرحه ورجوعه، ويعرف المراس والمهارة فى التعامل معها حتى إنه يحارب على السريع منها بلا ركاب، لخبرته بها وبركوبها.

ومن حديثه الشائق عنها أنه تكلم عن الصبور منها فيتذكر قصة[1] هذا الفرس الذى كان يقاتل عليه أحد فرسان العرب ويدعى (كامل المشطوب) حيث طُعن هذا الفرس فى موضع قلادته، فمالت

(١) الاعتبار : ١٢٠.

رقبته من شدتها، وخرج الرمح من أصل رقبته وما تزعزع منها واندملت الطعنة وبقى أثرها أكبر ما يكون من الجرح، وعاد للقتال مرة أخرى، فطُعن أيضاً فى جبهته طعنة خسفتها وما تزعزع وسلم منها، وكان أثر هذه الطعنة إذا أطبق الإنسان كفه وأدخلها فيها وسعتها، ولم يتغير هذا الفرس فى القتال من تلك الطعنات!.

ويحكى[1] أن من حسن صبر الخيل أن حصانا يقاتل وأمعاؤه مندلعة خارج بطنه من طعنة أصابته، وذلك أن أحد الفرسان يسمى (طراد ابن وهب) حضر قتالاً، وتحته حصان من أجود الخيل، فطُعن فى خاصرته فخرجت أمعاؤه، فشدها (طراد) فى سيور السرج على جانبى الحصان حتى لا تتقطع !! وقاتل حتى انقضى القتال، ثم مات الحصان من دون أن يتأثر صاحبه فى المعركة بهذه الطعنة البالغة.

ويروى[2] أن من خيله الصبور التى حارب بها حصانا قاتل عليه فى (حمص) فشقت طعنة قلبه فكان يقذف بالدم الغزير من منخاريه، وما أنكر أسامة عليه شيئاً؛ لأنه لم يتغير كراً ولا فراً لا فرق بينه وبين الفرس القوى السليم، وهذا حصان آخر[3] حارب به فى (شيزر) فجُرح ثلاثة جروح وهو يقاتل عليه ولا يعلم بهذه الجروح واكتشف إصابته بعد انتهاء المعركة، فكان هذا الحصان به من القوة العجيبة وهو مجروح.

وعن الضعيف الخوار منها يحكى[4] أنه حارب مرة وكان تحته حصان، فضربته نشابة صغيرة فى ساقه، فوقع به وقام، ووقع وهو يضربه وكان به من الضعف ما لا يخفى حتى أشار عليه أحدهم بأن يركب غيره.

---

(١) الاعتبار: ١٢٢.
(٢) المرجع السابق: ١٢٠.
(٣) المرجع السابق: ١٢٠.
(٤) المرجع السابق: ١٢١.

لكن ما علة ذكره الخيل على هذه الوجهة ؟ إنه يريد أن يقول إن الخيل مثل الرجال منها الصبور ومنها الخوار الجبان، ويريد أن يربط بين أخلاق الرجال فى الحرب وأخلاق الخيل، فالرجال منهم الشجاع ومنهم الجبان، فالضعف والقوة أصل فى الطبائع والجبلة فى كل المخلوقات وعلى الإنسان العاقل أن يختار الأفضل. وهو فى أثناء حديثه عن الخيل يؤكد على هذه الناحية فيذكر[1] أنه كان هناك رجل فارس جيد يدعى (فارساً) فيه من القوة والوفاء والشجاعة والصبر ما لا يخفى، لكن كان له ولد يسمى (علان) ليس كأبيه فى الشجاعة فكان يدخل الحرب كالغافل حتى يُطعن ويطْعن حصانه، فليس كل فارس ينجب فارساً مثل الخيل.

أسامة والأسد:

تكلم أسامة عن علاقته بالأسد، ويبدو أن البيئة التى عاشها كانت كثيرة المياه والأجام والغابات، فهو يذكر فى مواطن عديدة أن الأسد كان يخرج عليه هو ورجاله وهم فى طريقهم إلى حرب الروم أو الرجوع منها.

ويذكر أنها كانت تلتهم الرجال والغلمان وتدخل بهم الغاب. وتقفز على الخيل وتخطف من عليها وتقتله فى الطرقات خارج المدن والقرى، وقد شهد منها ما لم يكن يظنه، وقد قتل العديد منها منفردا وبمشاركة بعض الرجال مثل أخيه بهاء الدولة وهو يذكر حصافته فى طعنها حتى إنها تسقط من أول طعنة، وقد تربى على قتالها وما كان أبوه وعمه ينكران عليه ذلك.

ولا يريد أن يضخم من شجاعة الأسد حتى لا يخشاد الناس، فإذا كان أبو زيد الطائى وصف الأسد وصفاً أرعب من سمعه، حتى

(١) الاعتبار: ١١٨.

إن الخليفة عثمان بن عفان – رضى الله عنه – نهاه عن أن يكمل الوصف وتصويره الذى أرهب الناس[1]، فانظر إلى أسامة الذى يحكى من جبن الأسد ما يجعله مقاماً للسخرية والضحك فيقول[2]: إنه كان بدمشق جرو أسد رباه السَّباع معه حتى كبر وصار يطلب الخيل وتأذى الناس منه، فلما سمع الأمير معين الدين أمير دمشق به أمر بإحضاره، وفكه من سلسلته وأمر بإخراج خروف من ذبائح مطبخه أمام الأسد، لينظر كيف يفعل به، فإذا ساعة ما رآه الخروف حمل عليه فنطحه وانهزم منه، وجعل يدور والخروف يدور وراءه وقد غلبه بالنطح والضرب، فقال الأمير: هذا سبع منحوس وأمر بقتله وأعتق الخروف من الذبح. !!

والأسد سيد الحيوانات[3] كما يراه أسامة، ومن دلائل ما رآه بالمشاهدة ويؤكد ذلك: أن رأس الأسد كانت تُحمل بعد قتله إلى الدور فتراه السنانير، فتهرب من الدار وترمى نفوسها من السطوحات وهى ما رأت الأسد قبل ذلك، وكان الأسد يُقتل ويسلخ ويُرمى بلحمه من أعلى الحصن، فلا تقربه الكلاب ولا شئ من الطير، وإذا رأت القيقان (طيور الماء) لحمه نزلت إليه، ثم إذا دنت منه صاحت وطارت. وتشبه هيبة الأسد على الحيوان هيبة العقاب على الطير، فإن العقاب يبصره الفروج الذى ما رأى العقاب قط، فيصيح وينهزم، وهذه الهيبة ألقاها الله فى قلوب الحيوان والطير من هذين الحيوانيين.

وطبائع الأسد درسها أسامة دراسة العالم الخبير بها وعرف من سماتها ما لم يعرفه غيره، فهى على ما درسها ولاحظها[4]:

---

(١) طبقات فحول الشعراء جـ٢ / ٥٩٤ إلى ٦٠١.
(٢) المرجع السابق: ١٢٩.
(٣) المرجع السابق: ١٢٩، ١٣٠.
(٤) الاعتبار : ١٣١.

- إن الأسد مثل سواد من البهائم يخاف ابن آدم ويهرب منه.
- إن الأسد فيه غفلة وبله ما لم يُجرح.
- إن الأسد إذا جُرح فهو الأسد حينئذ بهديره وقتاله، ولا يُخاف منه إلا إذا جُرح.
- إذا خرج من غاب أو أجمة وحمل فلابد له من الرجوع إلى الأجمة التى خرج منها، ولو أن النيران فى طريقه، وقد عرف أسامة هذا بالملاحظة وكان يستغل إصرار عودة الأسد من المكان الذى خرج منه قبل أن يُجرح، فيطعنه ويقتله.
- من خصائصه العجيبة[1] أن الذر (النمل) يطلب جريح الأسد، فيتراكم على الجرح حتى يهلكه!

والسبب فى حديثه عن الأسد بهذه الصورة أنه يريد أن يربط طباع المحاربين بطباع الأسد، فيأخذوا منه الشجاعة والحمل على التدريب فى قتاله، فهو سيد الحيوانات الشجاع. وألا يخشى الناس منه، فمنه الشجاع والجبان، وأن مواجهته نوع من مواجهة العدو فبمواجهته يواجه الفارس الموت وأنها لا تنقص من العمر شيئا ولا تقدم الأجل – وهذا من أهدافه سيرته – فهو يذكر هذه القصة. فهذا الرجل[2] قد رآه أسامة يقتل الأسد وحده بقوسه وما أخطأ وبعد قتله نزع ثيابه ونزل يغتسل فى ماء النهر، ثم خرج ولبس ثيابه وحذاءه وإذا بعقرب قد اختفى داخل حذائه فلسعه ومات منه – ويد الرجل لم تنفض من قتل الأسد منذ لحظات – فسبحان الله القادر بيده آجال خلقه.

(١) الاعتبار: ١٠٦.
(٢) المرجع السابق : ١٣٠.

أما حديثه عن النمور فيوضح أنها أعنف وأنشط قتالاً من الأسود، ويحذر منها حذراً شديداً فيقول: "فأما النمور فقتالها أصعب من قتال الأسد؛ لخفتها وبُعد وثبتها، وهى تدخل المغارات والمجاحر كما تدخل الضباع، والأسد ما يكون إلا فى الغابات والآجام، والنمر من دون سائر الحيوان يقفز إلى فوق أربعين ذراعاً[1].

ويفرق بين النمر والفهد فى عدة خواص[2]: فالنمر لا يكاد يألف الناس ولا يستأنس بهم، ووجهه طويل مثل وجه الكلب، وعيناه زرق، والفهد وجهه مدور وعيناه سود، ومن خواص النمر العجيبة أنه إذا جرح الإنسان وبالت عليه فأرة مات، ولا ترتد الفأرة عن جريح النمر، حتى إنه يعمل له سريراً يجلس فى الماء ويربط حوله السنانير خوفاً عليه من الفأر!

نخلص بعدة فوائد أرادها ابن منقذ فى علاقة الإنسان بالحيوان.

الأولى: إن آجال الإنسان مكتوبة مثل آجال الحيوان فلا يخشى الإنسان الموت.

الثانية: أن يتحلى الإنسان بأجمل الصفات ومنها الشجاعة لأنها متحققة فى الحيوان الأعجم، فلا يكون الحيوان أجدر منه فى هذه الناحية.

الثالثة: ألا ينفصل الإنسان عن الكون فيتأمل ما فيه ويلاحظ ويدقق، قال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾[3] .

شخصية والده:

هو "مرشد بن على الملقب "مجد الدين" ولد سنة ٤٦٠هـ ومات يوم الاثنين ٨ رمضان سنة ٥٣١هـ ، كان فارساً شجاعاً،

(١) الاعتبار: ١٣١.
(٢) المرجع السابق: ١٣٢.
(٣) سورة الأنعام، آية: ٣٨.

ثابت الجنان عند البأس، لا يرتاع، صالحاً دائباً على مرضاة ربه ليس له شغل سوى حفظ كتاب الله والحرب وجهاد الإفرنج"[1].

والصورة العامة التى رسمها أسامة لوالده مكونة من عدة وجوه:

فهو: فارس شجاع محارب مجرب، أديب حافظ لكتاب الله والشعر، ليس له شغل سوى حرب الروم وجهادهم، صائم الدهر، مواظب على قراءة القرآن الكريم ونسخه، زاهد فى الحكم عن قوة وغلبة لا عن ضعف وقهر، يلازم أخيه أبا العساكر سلطان فى جهاد الإفرنج وتدبير شئون شيزر وقد آثره على نفسه فى تولية إمارتها. صياد ماهر له فى الصيد طرق وآفانين خاصة، معطاء كريم من أهل الصلاح والجود، شديد التدين والقناعة والتقوى والرضى بالحياة الخشنة التى يعيشها ويتنقل فيها بين الحصون والجبال، متعدد الثقافة فى شتى أنواع العوالم التى حوله من حيوان وطير وطبائع.

وكان أسامة باراً به يستدعى له رحمة الله فى كل موطن يذكره فيه وتعد شخصيته شخصية رئيسة بعد أسامة، وقد عكست ظلالها عليه فى مجال الحرب والفروسية والتربية والصيد.

ويعد جانباً الحرب والصيد من أبرز سمات شخصيته، ويقص أسامة الكثير من جوانب شجاعته، فهو يقاتل على أية حال، لا يخاف حتى ولو لم يكن مستعداً بأدواته الحربية، ومن ذلك ما شاهده وحضره حيث أنه رأى الإفرنج وهو على غير استعداد فلم ينزعج، وسار نحوهم وهو على بغلة وقد ناداد أسامة ليركب فرسه ويأخذ سلاحه لكنه أبى وفضل الحرب على ما هو عليه، يقول مخاطبا لأبيه فى هذه المعركة: "ترى العدو قد حال بيننا وبين البلد وأنت لا تركب

(١) لباب الآداب – الأمير أسامة بن منقذ ص : هـ.

بعض جنائبك، وأنا أخاطبك فلا تسمع، قال: يا ولدى، فى طالعى أننى لا أرتاع"[1].

ويقص أخباره فى حياة القتال والفروسية، وكثرة جراحه، وعناية الله له حتى مات على فراشه يقول: "كان الوالد – رحمه الله – كثير المباشرة للحرب وفى بدنه جراح هائلة، ومات على فراشه، وحضر يوما القتال وهو لابس وعليه خوذة إسلامية بأنف، فزرقه رجل بحربة، فوقعت الحربة فى أنف الخوذة فانطوى وأدمى أنفه ولم يؤذه، ولو كان قدر الله سبحانه أن يميل المزراق عن أنف الخوذه كان أهلكه، وضُرب مرة أخرى بنشابة فى ساقه، وفى خفه دشنى – أى خنجر – فوقع السهم فى الدشن فانكسر فيه ولم يجرحه، هذا لحسن دفاع الله تعالى. وشهد رحمه الله الحرب مع سيف الدولة خلف بن ملاعب الأشهبى صاحب أفامية بأرض كفر طاب، فلبس جوشنه – أى درع من حديد يغطى الصدر – وعجّل الغلام عن طرح كلاب الجوشن من الجانب، فجاء خشت فضربه فى ذلك الموضع الذى أخل الغلام بستره فوق بَزّه الأيسر، خرج الخشت من فوق بزه الأيمن فكانت أسباب السلامة لما جرت بها المشيئة من العجب، والجرح لما قدره الله سبحانه من العجب، فطعن رحمه الله فى ذلك اليوم فارساً وأحرف حصانه وثنى يده برمحه وجذبه من المطعون فحدثنى قال: حسست شيئاً قد لذع زندى، فظننته من حرارة صفائح الجوشن، إلا أن رمحى سقط من يدى، فرددتها فإذا قد طُعنت فى يدى وقد استرخت لقطع شئ من الأعصاب، فحضرته –رحمه الله– و(زيد) الجرائحى يداوى جرحه وعلى رأسه غلام واقف، فقال: يا زيد، أخرج هذه الحصاة من الجرح فما كلمه الجرائحى، فعاد فقال: يا زيد ما تبصر هذه الحصاة ؟ ما تزيلها من الجرح؟ فلما أضجره قال:

(١) الاعتبار : ٧٩.

أين الحصاة ؟ هذه رأس عصب قد انقطع، وأصابه ذلك اليوم طعنة أخرى وسلَّم الله حتى مات على فراشه"[١].

ومن صفاته النبيلة انشغاله بتخليص الأسرى من يد الإفرنج وبذل الكثير من ماله فيهم.

ويرسم أسامة جانباً من اهتمامات والده بكتاب الله حيث كان ناسخاً له بخط مليح ولا ينسخ غيره، وقد ختمه عدة مرات بماء الذهب وكتب فى ختماته علوم القرآن وقراءاته وغريبه وناسخه ومنسوخه وتفسيره وسبب نزوله وفقهه[٢]. وكان له اليد الطولى فى النجوم مع ورعه ودينه وصومه الدهر وتلاوة القرآن، وكان يحرض أسامة على معرفة علم النجوم فكان يأبى ويمتنع، فكان يريه النجوم ويعرفه أسماءها[٣].

أما جانب الصيد فيحكى أسامة عن والده، أنه كان له ترتيب فى الصيد كأنه ترتيب الحرب والأمر المهم، وكان المعلم له فى هذا الفن يقول: "وكان مشغوفاً بالصيد، عنده من البزاة والشواهين والصقور والفهود والكلاب الزغاوية ما لا يكاد يجتمع عند غيره، ويركب فى أربعين فارساً من أولاده ومماليكه، كل منهم خبير بالصيد عارف بالقنص، وله بشيزر متصيدان يوما يركب إلى غربى البلد إلى الأزوار والأنهار فيتصيد الدراج وطير الماء والأرانب والغزلان ويقتل الخنازير، ويوماً يركب إلى الجبل قبلى البلد يتصيد الحجل والأرانب"[٤].

---

(١) الاعتبار: ٧٥.
(٢) المرجع السابق: ٧٥.
(٣) المرجع السابق: ٧٩.
(٤) المرجع السابق : ١٤٦.

ويقرر أسامة أنه شاهد من الصيد كثيراً مع الأمراء مثل الأمير فخر الدين قرا أرسلان أمير حصن كيفا، والأمير معين الدين أنر صاحب دمشق، وشهاب الدين محمود، ونور الدين محمود، إلا أنه لم ير مثل صيد والده[1]. الذى كان يسيّر قوماً من أصحابه إلى البلاد لشراء البزاة مثل القسطنطنية، ويكلف الجبليين فى مواضع مختلفة بعمل مصايد لها ويبذل لهم ثمن كل ما اصطادوه منها، وفى خدمته كثير من الصقارين والكلابزية والبازيارية، وكان يعلمهم إصلاح وتدريب البزاة بنفسه[2].

ومن أمره وترتيبه فى الصيد أنه يخرج مع أولاده وغلمانه ومعهم أسلحتهم وجنائبهم فإذا صار فى المتصيد جعل بينهم مسابقة فى حفظ القرآن الكريم وبعد انتهاء الصيد آخر اليوم اختبرهم ويكون هو أحفظهم مع كبر سنه وتعبه وانشغاله بالصيد.

ويتحدث عن صبر والده وتحمله فى الصيد[3]، وأنه كان يفوق فى قوته أولاده الشباب وغلمانه الصغار مع ثقل جسمه وصيامه النهار، فكان لا يضعف ولا يتعب ولا يكل، ويقوم بكل أعباء الصيد من ركض وإرسال وإمساك مع أن غلمانه وخدامه وأولاده معه، وكان بعض غلمانه ينكر عليه ذلك ويقول له: أحسب أنى ما أنا معكم، فلا يلومه وكانوا يشفقون عليه من التعب والظمأ فى نهارد لكنه ما يزداد إلا عزيمة وصبرا بل إن أسامة يحكى أنه غاب عن والده طيلة يوم يطارد الحمر الوحشية وكان والده فى انتظارد طيلة هذا اليوم وهو واقف فى ظاهر البلد على فرسه لم ينصرف.

---

(١) الاعتبار: ٢٠٦.
(٢) المرجع السابق: ٢٠٨.
(٣) المرجع السابق: ٢٢١.

ولا يتوقف صيده فى بلاد العرب، بل كان فى رحلاته إلى بعض بلاد الفرس يتخذ الصيد فى طريقه ذهاباً وإياباً تفريجا عن النفس من طول السفر[1].

ويقرر أن والده كان لا يتخذ الصيد باباً من أبواب اللهو، بل كان يتخذه باباً من أبواب الجهاد ورياضة البدن والنفس، وإيقاظ العقل والذهن، فكان بمنزلة التمرين لحرب الإفرنج، حتى يظل على أدائه القوى ونشاطه الدائم، ويبعد عن الخمول والكسل حتى إذا جاء الروم إلى البلاد كان مستعداً لهم نفسياً وبدنياً هو ومن معه من أولاده ورجاله وعشيرته، فالصيد كان باباً من أبواب الجهاد الإسلامى والخطوة الأولى للحرب، ولذلك يحكى أسامة ما يدعم هذه النظرة حيث إن أباه فى صيده كان دائماً ما يتوقف عنه وهو أعلى الجبل أو التل أو الجسر وينصرف لحظات ليراقب الإفرنج وهم على بعد من البلاد[2]. فكان بمنزلة جندى الاستطلاع المراقب لحركات العدو. وكان لا يشغل أولاده بهذا الهم الكبير ويؤديه عنهم.

ونستخلص مما سبق أن شخصية الأب بالنسبة لأسامة كانت رمزاً للسلطة والقوة والجرأة والحب، ولم يكن جافاً فى تعامله معه تاركاً المجال للتقرب منه فى شئون الحياة، فاستطاع أسامة أن يتأثر به ويتعاطف معه، لأنه رأى فيه الحس الإنسانى العربى الصادق.

وكان أثره فى تربيته واضحاً، يتركه يواجه الشدائد، يدفعه لقتال الإفرنج، ويواجه المخاطر فى قتل الحيات والأسود ولم ينهه عن قتال قط وكان عمله برهاناً له فهو لا يقول مالا يفعل.

---

(١) الاعتبار: ٢٢٠.
(٢) المرجع السابق: ٢٢١.

وهى شخصية لها حضورها الدائم فى سيرته من خلال الأحداث التى يرويها أسامة حتى ولو لم يكن الحدث يدور حوله، فهو يذكر أولا وعلاقته بالحدث ثم يتركه ويقص الحدث، وأحياناً يأخذ كلام والده مفتاحاً للقصة ثم يرويها.

شخصية أمه:

أمه ليس لها حضور دائم فى سيرته اللهم إلا ما قصه لها من بطولة وجهاد ضد الإفرنج – ولعل غيرة الفارس العربى المسيطرة على نفسيته جعلته لا يكثر فى أحاديثه عنها.

وقد أعطانا صورة متطورة ناضجة لها، ليس فى جوانبها أى نقص أو خلل، فهى أم عربية أصيلة صابرة مثال للتضحية. من الصالحات محتسبة زوجها وأولادها عند الله فى أيام عصيبة لا يعرفها إلا من اكتوى بحروبها، وهى صورة للأم المجاهدة الشجاعة مع زوجها ضد الإفرنج، لا تخشى على أبنائها القتال، ولا تعارض زوجها فى تربيتهم على المغامرة والجهاد والفتك، لا تختبئ فى البيت أوقات القتال بل تشارك فيه بكل ما أوتيت من عزيمة، ولم يذكر أسامة فى سيرته ما خالفت به زوجها فى شئون الحرب، أو الخوف على فلذات أكبادها من الموت، ويرسم لها صورة لبطولة الأم فى عصرها الذى ملئ بالصراع مع الروم.

ويروى حادثة لأمه كان حاضرها بنفسه، حينما هاجمت الإسماعيلية –الباطنية– شيزر وكانوا يساندون الإفرنج فى القتال ضد المسلمين – وكان والده وعمه وإخوانه الرجال غائبين عن الحصن.

ففى هذا اليوم[1] قامت بدور القائد الحربى للحصن ففرقت السلاح وأدوات القتال على من كان موجوداً من الرجال، وكان منها

(١) الاعتبار: ١٤٥.

سلاح أسامة وأدواته القتالية، وجاءت إلى ابنتها الكبيرة وقالت لها: إلبسى خفك وإزارك، فلبست، ثم أخذتها إلى الروشن – وهو كوة نافذة فى حائط الحصن من دون عائق – وهذا الروشن يشرف على الوادى من الشرق، أجلستها عليه، وجلست إلى بابه، ولما جاء أسامة إلى الحصن وشاهد ذلك، قال: يا أمى أين سلاحى: قالت: يا بنى أعطيت السلاح لمن يقاتل عنا، وما ظننتك سالماً، قال: فأختى أى شئ تفعل هاهنا، قالت: يا بنى أجلستها على الروشن، وجلست برا منها، فإذا رأيت الباطنية – الإسماعيلية – قد وصلوا إلينا دفعتها إلى الوادى، فأراها قد ماتت ولا أراها مع الفلاحين والحلاجين مأسورة، فشكرها وشكر أخته وجزاهما خيراً، ويعلق على هذا بقوله: "فهذه النخوة أشد من نخوات الرجال"[1]. فهذا مثال للأم العربية فى القرن السادس الهجرى، فى وقت كان الروم ومن يعاونهم يلتهمون ثغور المسلمين التهاماً، أم ثبت الله قلبها ولم يجعله فارغا وألهمها الفداء والتضحية والصبر، تعرف أن قيمة السلاح فى القتال به واستخدامه، وهذه النظرة لا تخفى على قادة ورؤساء الجيوش فى العصر الحديث. واستطاعت أن تحافظ على حنوها وحزمها فى كل الظروف القاسية.

شخصية عمه:

من خلال سيرة أسامة نجد أنه فى بداية الأمر كانت إمارة شيزر ستؤل إلى والده، ثم هو من بعده ولكن أباد آثر الزهد فيها مع قدرته عليها، وتنازل لأخيه أبى العساكر (سلطان) الذى لم يكن لديه أولاد[2].

وقد اتخذ أبو العساكر أسامة ابنا له واصطفاه لنفسه، وحينما رزقه الله بالأولاد تغير قلبه ناحيته وأجبره على ترك شيزر هو وإخوته بعد وفاة والدهم.

---

(١) الاعتبار: ١٤٥.

(٢) ينظر عصر الدول والإمارات د/ شوقى ضيف: ٧١٤، ٧١٥.

لكن ذلك لم يؤثر عليه وهو يكتب عن عمه فى سيرته، لأنه كان مؤمناً بقوله تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾[1] إذ نجا من الموت هو وإخوته تحت أنقاض شيزر حينما ضربها الزلازل بعد مغادرته لها.

ومع أن عمه أجبره على مغادرة أرض شيزر خوفاً من تولية الإمارة، وحرمه من شيزر مهد صباه التى أحبها، إلا أن ذلك لم يجعله يتكلم عنه بسوء فى سيرته، وهذا من أخلاق الفرسان وحسن التربية، بل يجعله مثالاً للبطولة والتضحية والفروسية والدفاع عن الحرمات، ويصف فى أكثر من موطن بطولاته وبلائه فى صد الإفرنج عن شيزر وبلاد الشام، ولا يذكره إلا بالرحمة والرضوان عليه من الله ولا يكتب عنه إلا وهو ملازم لأبيه فى الحرب، ويذكر من ذلك أمثلة كثيرة منها[2] ما جرى فى (أفامية) وهى مدينة حصينة بالشام ومسيرة عمة إليها وحربه فيها وتركه شيزر لوالد أسامة يدافع عنها ضد الإفرنج[3].

وفى موطن آخر يخرج أسامة مع عمه لقتال الإفرنج فى أفامية[4].

ومن بطولات عمه أنه لما قصدَ (دنكرى) -صاحب أنطاكية- الموصلَ خرج إليها ووالده وخططا للحرب تخطيطاً جيداً ومنعوا الإفرنج من غزو البلاد[5].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢١٦.
(٢) الاعتبار : ٦٢.
(٣) المرجع السابق: ٦٢.
(٤) المرجع السابق: ٨٠.
(٥) المرجع السابق: ٩٠.

ويقص شيئاً من مروءته وإنسانيته فهذه المرأة التى تزوجها عمه وطلقها ومضى على ذلك وقت طويل، حينما وقعت فى أسر الإفرنج افتداها واشتراها بثمن غال إكراماً لها وقال: "ما أدع امرأة تزوجتها وانكشفت علىَّ فى أسر الإفرنج"[1].

ويكتب عن حسن إدارة عمه لشيزر ويسوق من شهادات الإفرنج ما يعضد ذلك وهو لا ينكره عليه، فهذا الفارس الإفرنجى الذى جاء إلى عمه رسولاً من بلاد الإفرنج يحدثه عن عقله وحسن سياسته لشيزر، وحينما سأله من أين عرفت أنى عاقل وما رأيتنى قبل الساعة ؟ قال: لأننى رأيت البلاد التى مشيت فيها خربة وبلدك عامراً، فعرفت أنك ما عمرته إلا بعقلك وسياستك[2] ويذكر علاقات عمه مع الإفرنج وصداقته لهم وقت المهادنة والسلم حيث كان يرسل إليهم المراسلات والأطباء والهدايا[3].

فهو ينقل صورة لعمه فى السلم والحرب، وصورة لسجاياه وأخلاقه العربية بصدق وإخلاص، ولم يترك للحادثة التى فعلها معه من إجباره على ترك شيزر أثراً سلبياً فى سيرته، مع أنه كان يكتب ذلك بعد سنين من وفاة عمه.

(١) الاعتبار: ٩٤.
(٢) المرجع السابق : ١٠٩.
(٣) المرجع السابق: ١٥٢.

الفصل الثانى
الأبعاد الفنية

لابد أن توضع السيرة الذاتية فى قالب فنى "فأخص ملامح الترجمة الذاتية التى تجعلها تنتهى إلى الفنون الأدبية أن يكون لها بناء مرسوم واضح، يستطيع كاتبها من خلاله أن يرتب الأحداث والمواقف والشخصيات التى مرت به ويصوغها صياغة أدبية محكمة بعد أن ينحى جانباً كثيراً من التفصيلات والدقائق التى استعادتها ذاكرته"(١).

وقد اشترط النقاد أن تأخذ السيرة الذاتية طابع القصة فى البناء والصياغة والحبكة وسرد الحوادث، والحوار، ولغة الوصف. والشخصيات.

- الأسلوب:

"اللغة تعد أهم عنصر فى العمل القصصى أو الروائى؛ لأنها هى التى تقدم العناصر الأخرى، فمن خلالها تقدم الشخصيات، وتوصف. وبها تتحدث، فتكشف عن مشاعرها وأفكارها وتباين مستوياتها. وهى التى تصور الحدث وتنقل الحركة، وهى التى تجسد الزمن. وتصور الأماكن وتصف الأشياء وهى التى تدمج كل هذه العناصر فى وحدة واحدة تكشف عن المغزى، وتبوح بالرسالة"(٢).

والروائى يفسح المجال لشخوصه لكى تتحرك فى علاقات محددة، ويدع الأفعال تترابط وتتفكك على نحو معين، ويدع الحركة تنمو والزمن يتحرك من الماضى إلى الحاضر أو العكس، ثم عليه بعد

---

(١) الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث: ٤.
(٢) فى نظرية الرواية بحث فى تقنيات السرد د/ عبد الملك مرتاض: ١٢٥ بتصرف.

ذلك أن يبرز المغزى البعيد الذى ينسج من حوله الأحداث وتطور الزمن، وحوار الشخوص مع بعضها[١].

وهذه النظرة التى تربط الروائى بالواقع، تملى عليه أن يستخدم لغة قريبة من الواقع، لغة تحكى الحدث، وتصور الحركة وتجسد الزمن، وتصف الشخصيات، وتدل على مستواهم الفكرى والاجتماعى، وتعكس روح العصر الذى تعيش فيه من حيث الأنساق التعبيرية والأبنية اللغوية[٢].

لكن ليس معنى هذا أن يتخلى العمل القصصى أو الروائى عن أدبية اللغة، وتتدنى إلى مستوى كلام العامة الذى يستطيع أن يؤديه كل شخص بكلماته على طريقته، كما يحدث فى الحكايات اليومية المستهلكة[٣]. وكما ترى ذلك واضحاً فى سيرة ابن منقذ، الذى صاغ أغلب سيرته باللغة العامية والدارجة كما يلاحظ القارئ فيما نقلناه من نصوص فيما سبق.

وقد لجأ ابن منقذ فى سيرته إلى عدة أساليب فنية منها:-

- الأسلوب الروائى: وظهر ذلك فى حديثه عن الشخصيات وانفعالاتها وصراعها الداخلى والخارجى مثل حديثه عن أبيه، وعمه وجدته يقول عن والده: "وكان الوالد رحمه الله، كثير المباشرة للحرب، وفى بدنه جراح هائلة ومات على فراشة، وحضر يوماً القتال وهو لابس وعليه خوذة إسلامية بأنف، فزرقه رجل بحربة..."[٤].

---

(١) ينظر نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة د/نبيلة إبراهيم ص: ٢٤.

(٢) ينظر بناء الرواية – دراسة فى الرواية المصرية د/ عبد الفتاح عثمان: ١٩٩.

(٣) بلاغة الخطاب وعلم النص. د/ صلاح فضل: ٣٧٦.

(٤) الاعتبار: ٧٤.

ويقول عن عمه ووالده: "وكانا -رحمهما الله- من أشجع قومهما، ولقد شهدتهما يوما وقد خرجا، فما شعرنا إلا وعسكر طرابلس قد أغار على البلد ووقفوا عليه، فرجعنا وكان الوالد من أثر مرض، فأما عمى فخفَّ بمن معه من العسكر وسار حتى عبر من المخاض إلى الإفرنج وهم يرونه ...." (١).

ويقول عن جدته بعد أن قتل أسداً وحده وحمله ودخل به شيزر: "وحملنا الأسد ودخلنا البلد العشاء، وإذا جدتى لأبى رحمها الله، قد جاءتنى فى الليل، وبين يديها شمعة، وهى عجوز كبيرة قد قاربت من العمر مئة سنة، فما شككت أنها قد جاءت تهنئنى بالسلامة وتعرفنى مسرتها بى بما فعلت ....."(٢).

- الأسلوب الإخبارى التقريرى وظهر ذلك فى سرد بعض الأحداث التاريخية، مثل حديثة عن الفتنة التى وقعت بمصر إبان مجيئه لها سنة تسع وثلاثين وخمس مئة يقول: "فوقع بين السودان وهم فى خلق عظيم، شر وخلف وبين الريحانية وهم عبيد الحافظ وبين الجيوشية والإسكندرانية والفرحية، فكان الريحانية فى جانب. وهؤلاء كلهم فى جانب متفقين على الريحانية، وانضاف إلى الجيوشية قوم من صبيان الخاص، فاجتمع من الفريقين خلق عظيم. وغاب عنهم الحافظ وترددت إليهم رسله، وحرص على الصلح بينهم..." (٣).

ويقول عن ضرب الروم لحصن شيزر بالمنجنيق سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة: "لما نزل الروم إلى شيزر سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة نصبوا عليها مجانيق هائلة جاءت معهم من بلادهم ترمى

(١) الاعتبار: ٧٨.
(٢) المرجع السابق: ١٤٦.
(٣) المرجع السابق: ٢٩.

الثقل، ويبلغ حجرها مالا تبلغه النشابة، وترمى الحجر عشرين وخمسة وعشرين رطلا ....." (١).

- أسلوب التحليل النفسى فى عرض بعض الشخصيات مثل حديثه عن شجاعة عمه بينما يخاف من الفأرة يقول: "ومن عجائب القلوب أنّ الإنسان يخوض الغمرات ويركب الأخطار ولا يرتاع قلبه من ذلك ويخاف مما لا يخاف منه الصبيان ولا النسوان، ولقد رأيت عمى عز الدين أبا العساكر سلطان -رحمه الله- وهو من أشجع أهله له المواقف المشهورة والطعنات المذكورة وهو إذا رأى الفأرة تغيرت صورة وجهه ولحقه كالزمع من نظرها ....." (٢).

ويقول عن شخصية رجل اسمه (الزمركل) وكان عجيباً غريباً يجاهد الإفرنج بطرق خاصة، وقد نال منه الإفرنج بالطعن بعد أن سرق منهم، وهو لا يبالى بجرحه العظيم: "وإذا الشيخ - يقصد الزمركل - جالس فى طريقى على حجر، والدم على ساقه وقدمه وقد جمد، قلت يهنئك السلامة! أى شئ عملت ؟ قال: أخذت منهم حصاناً وترساً ورمحاً ولحقنى رجل، وأنا خارج من عسكرهم طعننى نفذ القنطارية فى فخذى، وسبقت بالحصان والترس والرمح، وهو - أى الزمركل - مستقل بالطعنة التى فيه كأنها فى سواه، وهو من شياطين اللصوص"(٣). ويقول عنه أيضاً: "هذا يسرق رغيف خبز من بيته"(٤). إمعاناً فى لصوصيته.

- أسلوب التفسير: وذلك فى شرح بعض الأمور ومن ذلك حينما أراد أن يفسر بعض حوادث العبرة والعظة بمصرع الوزير

(١) الاعتبار: ١٣٣.
(٢) المرجع السابق: ١٦٠.
(٣) المرجع السابق: ٦٦.
(٤) المرجع السابق: ٦٧.

عباس وأنه لم يعتبر بمقتل من قبله من الوزراء الذين ساروا على دربه ومنهم هلاك الوزير رضوان، ثم بدأ يفسر حكايته ونكبته يقول: "ولولا نفاذ المشيئة فى عباس وابنه وعواقب البغى وكفر النعمة. كان اتعظ بما جرى قبله للأفضل رضوان بن الولخشى رحمه الله، كان وزيراً فقام الجند عليه بأمر الحافظ"(١).

ومنه حكاية ضرب المنجنيق القاتل التى تذكره بضرب السيوف الماضية ثم يفسر شيئاً من ضربها وقطعها يقول: "لقينى رجل من الإسماعيلية وفى يده سيخ وفى يدى سيف لى، فهجم علىَّ بالسيخ فضربته فى وسط ساعده والسيخ فى يده قبضته ونصله لاصق بساعده، فقطع قَدَّ أربع أصابع من نصل السيخ وقطع الساعد من نصفه فأبانه وبقى أثر ثلم السيخ فى حد السيف، فرآه صانع عندنا فقال: أنا أخرج هذا الثلم منه، قلت: دعه كما هو، فهو أحسن ما فيه"(٢)..... وكان من حدة هذا السيف أنه يقطع وهو فى غمد إذا ضُرب به كما يذكر فى حادثة أخرى.

- استخدام ضمير المتكلم مما يجعل شخصيته لها الحضور المركزى فى السيرة ويجعل الأحداث تدور حوله. مثل (وانقطعت يوما عن أصحابى) (فأقمت بعسقلان لمحاربة الإفرنج) (وكنت قد ركبت أنا) (ففاوضت الملك العادل) (وشاهدت فى الحرب) (ووصلت العصر إلى شيزر) (ورأيت من إقدام) (وشهدت يوماً وقد أغارت علينا).

- اعتماده فى جزء من سيرته على رواية وكلام الآخرين. وكانت لهذه الروايات والأحاديث دور مهم فى القضاء على رتابة حديثه مع القارئ. من هذه الأحاديث خبر يروى فى الشجاعة لفارس

(١) الاعتبار: ٥٣.
(٢) المرجع السابق: ١٣٧.

يغزو ثمانية ويهزمهم يقول: "ومن ذلك ما حكاه لى العُقاب الشاعر، رجل من أجنادنا من العرب قال: خرج أبى من تدمر، يريد سوق دمشق، ومعه أربعة فواس وأربعة رجالة ..... الخ"[1].

ومن روايات الآخرين حكاية هذه المستسقى الذى يشق بطنه ويبرئ يقول: "إن رجلاً من بنى كنانة حدثنى بحصن الجسر أن رجلاً فى الحصن استسقى فشق بطنه فبرئ وعاد صحيحاً كما كان..."[2].

وهذه الرواية التى تفيد أن شرب البيض يشفى الخراج يقول: "حدثنى الأمير سيف الدولة زنكى بن قراجا -رحمه الله- قال: دعانا شاهنشاه بحلب ... فطلبنا منه شيئاً نأكله، فقال: ما عندى شئ، فلاججناه حتى أجابنا إلى أن يحضر لنا بيضا، فأحضر البيض وأحضرنا صحنا وكسرنا البيض، فأشرت إلى ذلك الرجل الذى فى رقبته السلعة أن يشرب البيض ....." [3].

وقد كتب أسامة سيرته بطريقة الرجوع من الحاضر الذى يعيشه إلى الماضى الذى فات ومن وسائله فى ذلك:

- استخدام الفعل (كان) الذى لا تكاد تخلو منه صفحة مثل: (فكان وصولى إلى مصر .....) (وكان أخى عز الدولة فى جملة من سار) (وكانا يخرجان فى الليل ....) (وكان ذلك اليوم من أشد...) (وكان قبل ذلك أحضر قوما ..) (وقد كان بين هذه الوقعات فترات) (وكان الوالد أرسل رسولا ...) (وكان معى مملوك صغير يجر فرسا....) وهذه العبارات تأتى فى أول كل حكاية أو قصة.

---

(١) الاعتبار: ٩٢.
(٢) المرجع السابق: ١٦٥.
(٣) المرجع السابق: ١٩٥.

- استخدام الأفعال الماضية: فقد سيطر على أسلوبه صيغة الفعل الماضى فهو يبدأ حكاياته بهذه العبارات: (وجلس بعده الظافر...) (وبلغ الخبر ابن السلار...) (ومن طريف ما جرى لى فى الطريق ....) (ثم سكنت هذه الفتنة ...) (فسرنا فى أشد من الموت....) (ووصل عمى من عند نجم الدين إيلغازى ....) (نزل علينا صاحب أنطاكية لعنه الله بفارسه وراجله .....).

- قص الحوادث الماضية مثل قوله: (وقد كان بين هذه الوقعات فترات شهدت فيها من الحروب ...) (وشاهدت من الطعنات العظيمة طعنة طعنها فارس من الإفرنج ....) (وأغار علينا عسكر أنطاكية وأصحابنا قد التقوا أوائلهم ....) (ونزل علينا عسكر أنطاكية فى بعض الأيام .....).

ولأن أسامة شاعر فإنه لا يكتفى باللغة النثرية، بل يضمن سيرته شيئا من الشعر سواء كان له أو لغيره، يقول مصورا ضعف قوته ووهن عظامه وانقضاء بلهنية العيش[1]:

تناستنى الآجال حتى كأننى ... ردّية سَفْر بالفلاة حسير
ولما تدع منى الثمانون مِنّةً ... كأنى إذا رمت القيام كسير

ويقول[2]:

لما بلغت من الحياة إلى مدى ... قد كنت أهواه تمنيت الردى
ضعفت قواى وخاننى الثقتان من ... بصرى وسمعى شارفت المدى
فإذا نهضت حسبت أنى حامل ... جبلا وأمشى إن مشيت مقيدا
وأبيت فى لين المهاد مسهدا ... قلقا كأنى ما افترشت الجلمدا

والأبيات السابقة وغيرها كثير قد وردت فى سيرته ولم تأت فى ديوانه مما يدعو إلى النظرة فى شعره مرة أخرى وشعر غيره من أعلام الفكر العربى الذين جمعوا بين النظم والنثر.

(١) الاعتبار: ١٨٢.
(٢) المرجع السابق .

ومزج النثر بالشعر يؤدى وظيفة للشعر مهمة فى تمام السيرة الذاتية، وأن هناك ما يمكن أن يُسمى بقصيدة السيرة الذاتية تضيئ جانباً من جوانب حياة الكاتب أو تكشف عن مرحلة من مراحله.

- الجمل الاعتراضية: تمثل الجمل الاعتراضية ظاهرة بارزة من ظواهر أسلوبه، بل إن القارئ يتعجب من كثرة تكرارها فى الفقرة الواحدة من دون أن يفصل بينها جمل كثيرة، فتتكرر فى الفقرة أكثر من ثلاث مرات وفى الصفحة أكثر من مرة فمثلاً يقول: "وصل عمى -رحمه الله- من عند نجم الدين إيلغازى -رحمه الله-"(١).

وأساليب الاعتراض تجدها عبارة - رحمه الله أو تجاوز الله عنه - - عفا الله عنه - تجد ذلك فى مقام ذكر فرسان المسلمين أو الشهداء والمحاربين ووالده وعمه وجدته ووالدته وأصفيائه، وعبارة لعنهم الله - أو لعنه الله - فى مقام ذكر الإفرنج أو اللصوص من العرب أو الخائنين من المسلمين، ولعل القارئ يظن ذلك من الفضول أو الحشو فى الأسلوب ولكن بشئ من التدبر يتبين أن هذه الأساليب تفصح عن عاطفة الكاتب نحو من يكتب عنهم حباً أو كرها.

ومن الملاحظ فى سيرته تأثره فى أسلوبه باللغات التى عاصرها سواء ما كان من لغة الصليبيين أو الفرس أو الترك أو اليونان أو المصريين أو أعراب الصحراء.

فهو يورد كلمات فرنسية من لغة الصليبيين مثل:

الداما: بمعنى الأميرة أو السيدة.

البرجاس: بمعنى صغار التجار.

البرونس: بمعنى الأمير.

(١) الاعتبار: ٦٤.

ومن الكلمات اليونانية:

الزربول: بمعنى الحذاء.

ومن الكلمات التركية:

جوبان: بمعنى الراعى.

البرق: بمعنى السلاح.

البالة: بمعنى الحربة أو السكين.

ومن الكلمات الفارسية:

الخشت: بمعنى الحربة القصيرة.

البشت: بمعنى العباءة الواسعة.

دشنى: بمعنى الخنجر.

الجندارية: بمعنى الحرس الخاص.

سرفسار: بمعنى عنان الدابة.

رهـوان: بمعنى البرذون أو البغل.

البرجـم: بمعنى ذيل عجل البحر.

البازدار: بمعنى حافظ البزاة.

وهو يستخدم الكثير من الكلمات العامية سواء كانـت سـورية أو عراقية أو مصرية مثل:

الإكديش: بمعنى حصان غير أصيل.

يتمختر : بمعنى يتبختر أو يمشى.

اللاسين : بمعنى نفاية الحرير.

يدبـدب: بمعنى يتجسس.

البتيـة : بمعنى البرميل.

وهو يستخدم الكثير من الكلمات العامية التى هى على ألسـنة الناس إلى الآن مثل: قوله: امش معى، صار فى قَدَّ الكلب وما زالـت

كلمة (قَدَّ كذا) تستعمل فى بعض البلاد العربية كمصر ويقصد بها: مثل كذا، هو دل الحرامية، جاءت امرأة مسكت ثوبى، صَلّ برا، هو شاطر، رأيتم ما يعمل.

ومن الأساليب الدارجة أيضاً بين الناس: أولاد الحلال، ما اشترانى ولا ربانى، ما كان لكم عيون صاحية، قد بطلنا، أى شئ تريد أن تعمل، ياستى، روحوا إلى بيوتكم، ودخت ما بقيت أدرى بما أنا فيه، الخيل سائبة، وقع الوجه البرانى وبقى الوجه الجوانى.

وبعض هذه الأساليب يستخدم إلى الآن فى سوريا والعراق ومصر.

واستطاع من خلال اللغة أن ينقل جانباً من لغة الحوار بين الناس فى عصره، فهو ينقل ما يدور بين الآباء والأبناء، والجند والفرسان، والخدم والصبيان والنساء، والتجار والقصابين والحلاجين والفلاحين واللصوص والصعاليك فمن حوار الفرسان أن فارساً يدعى جمعة جاء أسامة ليعتزر عن انهزام ابنه فى الحرب وقال: هذا الكلب انهزم ..... [1].

ومن الحوار أيضاً قول صاحب أنطاكية لرجاله: فارس واحد من المسلمين يطرد فارسين من الإفرنج؟ ما أنتم رجالة أنتم نساء!! [2]

ومن ذلك الحوار بين خادم أسامة ومكار نصرانى: مالك يا ريس؟ قال سمعت أن فى طريقكم حرامية جئت لأسيركم سيروا[3].

ويلاحظ أيضاً هذا الحشد الكبير من مئات الكلمات المحلية أو العامية التى ساقها؛ لتأثره بلغة المجتمع المحلى فى عصره وهو

(١) الاعتبار : ٨٥.
(٢) المرجع السابق: ٨٧.
(٣) المرجع السابق: ١٠٢.

العصر الفاطمى فى مصر والعراق وسوريا وفلسطين مما يجعلنا نلفت انتباه هؤلاء الذين يهتمون بهذه اللغات واللهجات المحلية فى هذه الحقبة لمراجعة هذا الجانب من الحضارة العربية فى المجتمع العربى وقت الحروب الصليبية.

وانظر إلى هذا التراكم فى إيراد الأسماء، فقد أورد مئات الأسماء للبلدان والقرى والضياع، والحصون، والجبال، والتلال، والقلاع، والأنهار، والأودية، والكهوف فى دمشق والعراق ومصر وفلسطين وبلاد الشام وسيناء، كذلك أسماء السلاطين والملوك والأمراء والقادة والفرسان والمحاربين من عرب وأكراد وسلاجقة وإفرنج، وأسماء أطباء من عرب وإفرنج، وقضاه وعلماء، وأسماء الحيوانات والطيور والوحوش والخيل والأسماك، والأقمشة والثياب والأحذية وأدوات الزينة والطعام والشراب، والحرب وآلات الصيد.

فمن أسماء القادة والفرسان والأمراء من عرب وإفرنج وأكراد: (بولدوين) ملك القدس، (جوسلين) صاحب تل باشر، ومن القادة الصليبيين (إيلغازى بن أرتق)، (بومند الثانى) (رينيه) (فلك بن فلك) (هوتنكرد)، (بومند الأول)، (بدرهو)، (روجر)، (إسبا سلاربرسق بن برسق) قائد عربى، (آلتونتاش) صاحب رفنية، (طغدكين أتابك) أمير من أمراء الشام، (قيماز) قائد عسكرى مصرى، (قراجا) أمير حماة، (سرهنك) اسم فارس إفرنجى، (إيلغازى بن أرتق) صاحب دياربكر وحلب، (السردانى) قائد عربى، (يوحنا بن بطلان) طبيب عربى، ومن أمراء العرب: (حسام الدين تمرتاش) (أبو بكر الديبسى) (زين الدين كوجك).

ومن أسماء البلدان والمواضع: (حصن الجسر) حصن بشيزر، (كفر بنودا) موضع بحلب، (بدليس) بلد قرب أرمينية، (حيزان) بلد قرب أسعرت، (أسفونا) حصن قرب معرة النعمان، (جبلة) قلعة

بساحل الشام، (تل مجاهد) تل بقرب حماة، (كنيسة حنـاك) حصـن بمعرة النعمان، (قدموس) حصن قديم بالشام، (الرها) بلـدة بتركيـا، (تل الملح) مكان بشيزر، (باشمرا) قلعة فى جبل سـمعان بسـوريا، (الروج) كورة فى حلب، (تل الترمس، تل التلول) موضعان بسوريا، (زلين) مدينة بسوريا لم يعد لها وجود، (دانيث) بلد من حلب، (حصن الخربة) حصن بالشام (الباشورة) حائط الدفاع فى الحصـن، (بـدن) الممرات التى تلى أبراج الحصن، (صلخد) مكان بالشـام، (رعبـان، كيسون) قلعتان بالشام، (أفامية) مدينة حصينة بالشام، (بلاط) موضع بالموصل (كفر طاب) بلدة بين المعرة وحلب، (رفنيـة) كـورة مـن أعمال حمص. (الجفر) بئر بين فلسطين والشـام، (حسـمى) أرض ببادية الشام، (ينبى) مدينة بفلسطين، (البرقية) محلة بشرق القاهرة (كوم إشفين) بلدة بالقليوبية بمصر، (المويلح) موقع قـرب العقبـة، (القطيفة، الفستقة، عذراء، القصير) قرى بدمشـق، (وادى حلبـون) وادى بدمشق،(حصن كيفا) حصن بالموصل،(تل صفرون) تل بحماة.

ومن أسماء أدوات القتال وعدة الحرب: (الران) حذاء حربـى كالخف، (الموز) ما يلف على ساق المحارب، (اليرق) السلاح. (الدشن) الخنجر، (تركبولى) رامى الإفـرنج، (الجوشـن) درع مـن زرد الحديـد. (سرجندى) جندى المشاة، (يركة) الذخيرة، (عشارى، بطسة) نوعان من السفن، (القنطارية) نوع من الرماح، (كذاغندا) سـترة سـميكة تحمى رأس المحارب، (كشما) سهم غير مريش، (الكلسات) غطـاء لعظم ساق المحارب، (الجرضية) دولاب يقذف السهام، (الوشـاقية) بمعنى الحرس، (تركش) كنانة السهام، (البالة) حربة أو سكين.

من أسماء القبائل: (بنو قراجا) قوم بالشام، و (درماء)، (جذام) (سنبس) (طلحة) (جعفر) (لواته) قبائل متجولة بين سـيناء والـديار المصرية، (الجيوشية) (الريحانية) (الاسكندرية) أقوام من السودان.

من أسماء الحيوانات والطيور وما يتطـق بهمـا: (البـاغز) الحصان النشيط، (جوبان) بمعنى الراعى، (النبج) الأكمة، (مسـندرة) مسرعة، (سموط) سير يعلق على السرج، (الباشات) حلقة يربط بها العنان، (البيضانيات) (الكركـى) (الـبج) (البلاشـين) (الشـواهين) (الصقور) (البزاة) (الحجل) (الدراج) (الزرح) أنواع من الطيور.

أسماء الثياب والأقمشـة وأدوات الزينـة: (اللاسـين) نفايـة الحرير، (الخوان سلار) قيم مائدة الطعام، (العيبة) زبيل يجعـل فيـه الثياب، (التجمل) الأثاث والثياب والحلى، (معرقة) غطاء رأس المرأة، (أقدام) جوارب، (دبيقى) و (سقلاطون) (مسنجب) (دمياطى) أنـواع من الأقمشة والنسيج.

وإنما قصدت لذكر ما سبق ليتبين أهمية سيرة ابن منقذ وكتابه الاعتبار فى علوم الحضارة الإسلامية لاسيما علم اللسـانيات وعلـم الاجتماع اللغوى، لأن ما ورد من أسماء سابقة يندر أن يكون مذكوراً فى المصادر الأخرى، وبعضها باقٍ إلى الآن سواء بقى على أصله أو حُرف، وبعضها قد اختفى لم يعد له وجود؛ لاختفاء المعالم التى كانت تطلق عليها، وبعضها حلت محله أسماء أخرى بعد ظهـور المدنيـة والدول الحديثة.

والسيرة لا تُعفى من ورود بعض الأخطاء والتصحيفات، وخلو بعض العبارات من الربط والعطف، واستعمال الغريب، فضـلا عـن العامى والدارج، لكن ذلك ينبغى أن يؤخذ على حذر؛ فأسـامة ناقـد وكاتب وبليغ وشاعر، وهذه الأخطاء لم تحدث فى كتبه الأخـرى – اعتقد – أنها لا تفوته، وربما وقع هذا من عمل نساخ الكتاب. فضلا عن أنه أملاه فى التسعين من عمره، فربما لم يحكـه لمـن يكتبـه بالفصحى، أو أنه لم يراجعه لكبر سنه، وأن كاتبه وقعت منه أخطـاء لم يستدركها.

ويشي الأسلوب فى سيرته ببعض الصور البيانية ويبدو أنه استفاد من خياله الشعرى فى هذا الجانب فمثلاً يصور شق الطعنة فى جبهة رجل يحارب بفم السمكة المفتوحة[١].

والمستوى اللغوى يبدو فى النثر الشاعرى أو شاعرية النثر فأسامة قبل كل شئ هو شاعر مجيد. فتلقاد فى الاعتبار ينتقى المفردة ويحاول أن يجمل صياغته بالصور البيانية.

فيصور منخارى الفرس بعد أن أصابته طعنة فيهما وتدفق الدم الشديد منهما بالعزلتين[٢] والعزلاء "مصب الماء من الراوية[٣] بسرعة وشدة.

وتصوير الحصان بالصخرة الصماء قدت من قنة الجبل[٤].

وتصوير شعر امرأة قُتل ولداها فى الحرب بالقطنة المندوفة[٥].

كما جاءت قليل من الصور بصيغة دارجة عامية مثل تصويره كثرة نتاج الغزال فى مصر وأخذ الناس منها الكثير بأنهم يقشونها كما يقش الحطب[٦].

الوحدة الموضوعية والفنية فى سيرة أسامة بن منقذ:

تتمثل الفلسفة العامة للاعتبار فى أمر واحد يوشى الكتاب بالوحدة الفنية والموضوعية، ففلسفته هى العبرة والعظة من حوادث الدهر، وقد أفصح عن ذلك حينما قرر[٧].

---

(١) الاعتبار : ٨١.
(٢) المرجع السابق: ١٢٠.
(٣) القاموس المحيط: ١٣٣٣.
(٤) الاعتبار : ٢٤.
(٥) المرجع السابق: ١٧٧.
(٦) المرجع السابق: ٢٣٢.
(٧) المرجع السابق: ١٧٩ إلى ١٨٣.

- أن العمر بيد الله وهو مؤقت وأن الموت لا يقدمه ركوب الخطر، ولا يؤخره شدة الحذر.
- أن ركوب الأخطار فى الحروب لا ينقص من العمر شيئا.
- أن النصر فى الحرب من الله تبارك وتعالى لا بترتيب ولا بتدبير، ولا بكثرة نفير ولا نصير.
- استثارة عزيمة المسلمين لقتال الإفرنج تحت راية صلاح الدين الأيوبى.

وقد نشر أسامة هذه الفلسفة بين فصول كتابه، وجعلها هدفه انظر إليه وهو يقول: "النصر فى الحرب من الله تبارك وتعالى لا بترتيب ولا بتدبير، ولا بكثرة نفير ولا نصير"(١)، ويقول : "علمت أن ركوب أخطار الحروب لا ينقص مدة الأجل المكتوب"(٢).

أضف إلى ذلك دوران الكتاب حول موضوع واحد هو شخصية أسامة والأحداث التى تدور حولها، وما عدا ذلك من القصص والأخبار خدم لها، فهو يصف ما حضره من الوقعات والأهوال، وما باشره من الحروب والأسفار والرحلات على مدى تسعين عاماً إلى أن صار حبيس المنزل وعن الحروب بمنأى، ويسرد عجائب ما شاهده من الأحداث وإقدام الرجال والنساء عرباً وإفرنجاً، وما شاهده من عجائب البشر والحيوان والطير.

ويربط بين هذه الحوادث ربطاً فنياً دقيقاً فيه التلاحم والانسجام بحيث لو حذفت أحدها أختل الهدف وبعُد المقصد، ومن أمثلة ذلك هذا الخبر الذى يرويه عن شجاعة الخيل فى القتال، فيقص عليك هذا الخبر الطريف لفرس يقاتل صاحبه فوقه بينما أمعاء الفرس خارجة

(١) الاعتبار: ١٦٦.
(٢) المرجع السابق: ١٨١.

من بطنه إثر طعنة وهو يكر ويفر[1]، فهو إذن يصف لك شجاعة الرجل مع حصانه فى الحرب، وإذ به ينتقل إلى نفسه انتقالاً لطيفاً لا يكاد يدرك مثل حسن التخلص فى القصيدة العربية، فيروى لك قتاله على حصانه وركوبه له واستعداده الدائم هو وفرسه للقتال ويقظته وملاحظته[2]، ثم يتنقل بلا فجوة إلى حديثه عن عمه وهو يتفقد حضور ذهنه فى القتال وهو على فرسه[3] فيكاد يكون الربط غير ملاحظ.

ولا يمكن إنكار أنه أورد فى سيرته بعض القصص والأخبار التى لا تتعلق به مثل: مزور التوقيع الذى قطعت رقبته[4] والبواب الذى يموت جزعا[5] لكن إذا علمنا أن ذلك كان مما شاهده وتأثر به، وقصد به انتفاع القارئ وتحذيره علمنا مدى ارتباط هذه لأحداث وتعلقها به مما يزيد الوحدة الفنية تآلفا.

وقد اتخذ عدة طرق فنية لتحقيق الوحدة الفنية والموضوعية منها:

١) طريقة التداعى والتوارد: بأن تتابع القصص متابعة فى ترابط قوى غير مخل ومن ذلك أحاديثه عن أسفاره لمصر، إذ ترى هذه الحوادث المتداعية: ثورة فى الجيش المصرى، خروج ابن السلار على الظافر، هزيمة بن مصال، الخليفة يكيد لوزيره، الوزير يقتل الخليفة، وهذه الحوادث يضمها مكان واحد وهو مصر.

٢) طريقة توافق الأخبار ومماثلتها لبعض: فهو يروى القصة وما يوافقها حتى ولو كان المكان مختلفا ومن أمثلة ذلك:

---

(١) الاعتبار: ١٢١.
(٢) المرجع السابق: ١٢٢.
(٣) المرجع السابق: ١٢٣.
(٤) المرجع السابق: ٣٣.
(٥) المرجع السابق: ٤٤.

- موقعة حربية مع الإفرنج فى عسقلان، وأخرى فى بيت جبريل وأخرى فى ينبى.
- عمه مع شجاعته يخاف الفأر، وغيره يخاف من الحية.
- رغبة شيخ ميّت تتحقق، وآخر فى المعرة يشعر بموت رجل فى مكة.

٣) طريقة تناقض القصص ومخالفتها، فهو يذكر القصة ثم يذكر ما يخالفها من قصص فى الغرض والهدف ومن ذلك:

- قصة فارس يسلم بعد أن قطع شريان قلبه فى الحرب، وقصة رجل قوى البنية يموت من إبرة.
- أسامة ورجل يهزمان ثمانية فرسان من الإفرنج، وقصة هزيمتهما من رويجل صغير.
- رجل ينشرُ ساقه بالمنشار بنفسه وآخر يغشى عليه من سماع حديث الفصد.

٤) استخدامه لبعض الأساليب الفنية التى تدعم الربط بين القصص مثل قوله: (وقد جرى لى ما يشبه ذلك) (ورأيت ما يقارب ذلك) (وقريب من هذا) (ومن ذلك) (وعلى ذكر كذا) (وذكرنى هذا بكذا) (وقد حضرت ما يقارب ذلك) (ويشبه هذا الحديث).

ولذلك لا اتفق مع الدكتور شوقى ضيف حينما نفى الوحدة الفنية الموضوعية عن اعتبار أسامة حيث قال: "وإذا كان هناك شئ يؤخذ على هذه المذكرات فهو أنها لم تكتب بشكل منطقى على الزمن وتطوره وامتداده، وإنما كتبت فى شكل أخبار من هنا وهناك"[١].

ونسى الدكتور ضيف أن عمل أسامة عمل أدبى لا تاريخى حتى يشترط هذا الترتيب المنطقى، وأرى أنه قد أقر بهذه الوحدة من طرف

(١) الترجمة الشخصية: ٩٤.

خفى حينما قال: "ومع ذلك فإنها تلم بحياته منذ صباه وحياة أبيه وعمه، وكل ما كان ببيئته فى نشأته، كما تلم برحلاته، وتنقلاته وحروبه، وهى ترجمة كاملة له"[1]. أما ما اشترطه من الترتيب الدقيق لها وخلوها منه، فإنه لا يشترط فى السيرة الذاتية الترتيب الدقيق للأحداث، فقد يبدأ الكاتب من الحاضر ثم يعود إلى الماضى، ثم يذكر أخباراً وقعت فى وسط حياته، وقد يبدأ من الماضى إلى الحاضر وهكذا.

روح الإنصاف فى حديثه عن الإفرنج:

ويتحلى أسلوبه بروح الإنصاف فى حديثه عن الإفرنج، حيث لا يقتصر على طباعهم الخبيثة بل يذكر المحمود منها، فمن روح الإنصاف أنه كان لا يتخذهم أعداء على الجملة، فكان يتخذ من بعض فرسانهم أصدقاء، وكانوا يدعونه بكلمة "أخى" ويدعوهم بذلك[2].

ويذكر من شهامة بعض فرسان الإفرنج إنقاذه من القتل، حيث كان مجتازاً لبعض أسواقهم فتعلقت به امرأة إفرنجية كان أسامة قتل زوجها فى الحرب، فاجتمع الإفرنج فى السوق عليه وكادوا يقتلونه. فجاء هذا الفارس الشهم وصرفهم عنه وجعله يسير إلى حيث يشاء[3].

وبعد ما يذكر بلادتهم فى الطب وتخلفهم فيه وتقدم أطباء العرب عليهم، يذكر ما لهم من براعة فى صناعة الدواء[4].

---

(١) الترجمة الشخصية: ٩٤.
(٢) الاعتبار : ١٥١.
(٣) المرجع السابق: ١٦٠.
(٤) المرجع السابق: ١٥٣.

كذلك بعد ما يذكر عدم نظافتهم فى الأكل والمشرب واللباس يذكر أن بعضهم تأثر بحياة العرب فكان نظيفاً فى بيته وملبسه وأكله، وأنه لا يأكل لحم الخنزير مثل بنى جلدته[١].

الموضوعية فى نقل الأخبار:

ويلتزم الموضوعية والحياد فى نقل الأخبار وأحاديثه عن نفسه، فلا يتحيز لشئ وإن وجد أمراً غريباً علق عليه بما يناسب الموضوعية.

ومن أمثلة ذلك أنه فى إحدى المعارك يصف النصر على الإفرنج بأن سببه احتراز الإفرنج بالسلامة من القتال وإيثارهم العودة على القتال حيث كانوا لا يجدّون فى طلبهم وليس سبب النصر عدد وقوة جنود المسلمين[٢].

ويعترف بالهزيمة أمام إفرنج أنطاكية فى إحدى المعارك وفرار جنود المسلمين منهزمين أمامهم[٣].

ومن الموضوعية الشخصية أيضاً أنه فى باب الصيد عندما حكى عن براعة والده فى الصيد، ويذكر أنه لم ير مثله فيه يعلق بموضوعية فيقول: "إن هذا الإعجاب لا يدرى سببه أهو من عين المحبة كما قال القائل: "وكل ما يفعل المحبوب محبوباً" أو كان نظره فيه على التحقيق"[٤].

وفى صيده لحمر وحشية يصف فشله فى صيدها بموضوعية حيث لم يعمل الطعنة لضعف يده فى هذا الوقت، ثم يصور بعد فشله أن أصحابه صادوها[٥].

---

(١) الاعتبار: ١٦٠.
(٢) المرجع السابق: ٤٠.
(٣) المرجع السابق : ٨٤.
(٤) المرجع السابق: ٢٠٦.
(٥) المرجع السابق: ٢٢٧.

وفى موضع أخر يسجل بموضوعية أنه فقد وخسر رفاقاً له فى الطريق بسبب قلة خبرته، حيث حمل عليه وعلى رفاقه مجموعة من الرجالة فى الطريق من حماة إلى دمشق، حيث قتلوا من أصحابه فارسين وأخذوا خيلهما، وعاد منهزماً[1].

الانتقاء والاختيار:

كتاب الاعتبار ملئ بالمغامرات والصور والمشاهدات والحكايات الغريبة، والحوادث الخطيرة، فهل معنى ذلك أن حوادث السيرة جاءت من المؤلف هكذا بلا انتقاء واختيار؟

لا شك فى أن الاعتبار عمل كاتبه على غربلة مواده الأدبية، وكانت لديه البصيرة فى الاختيار والانتقاء، فإذا كان يعرف الكثير ولديه غزارة من المخزون والتجارب، فهو يعرف أن من واجبه إلا يذكر هذا الكثير، فيكتفى بالملائم والمشابه والمقارب والحكاية الواحدة تكفى عن العديد.

وقد صرح بهذا الانتقاء للقارئ فقال: "الإطالة تجلب الملالة والحوادث والطوارئ أكثر من أن تنحصر"[2].

فهو يشفق على قارئ الاعتبار من الفتور والملل إذا أكثر من قص الحوادث، والدليل على الانتقاء ما ذكره من أحداث حين إقامته بمصر فهى تدل على حسن اختيار المهم، وما كان له تأثير وخطر فى مجريات السياسة آنذاك، وما ذكره أيضاً فى باب الصيد حيث يقول: "فمن ذلك ما حضرته بشيزر فى صدر العمر، ومن ذلك ما حضرته مع ملك الأمراء أتابك زنكى، ومن ذلك ما حضرته بدمشق مع شهاب الدين محمود، ومن ذلك ما حضرته مع الملك العادل نور الدين

(١) الاعتبار: ١٧٢.
(٢) المرجع السابق: ١٩٩.

محمود، وما حضرته بديار بكر"[1]. ثم يروى لك مع كل واحد من هؤلاء حادثة واحدة فقط للصيد معهم انتقاها بذوقه المرهف وذكائه البليغ، والمتبصر يرى أنه قد اصطاد مع هؤلاء أكثر من مرة ومرات عديدة، لكن الواحدة تكفى لغرضه، ومن الغريب أن يكون قد اصطاد مع كل هؤلاء مرة واحدة !

وما ذكره عن والده ووالدته من حوادث يدل على أنه لم يذكر كل ما حدث له فى كنفهما. وإلا فإين قصصه عن إخوته وأمه فى حياته الأسرية وأين قصصه عن أولاده ؟!

الصدق الفنى:

من دلائل الصدق الفنى والواقعى فى سيرته، اعترافه بالنسيان، وأنه آفة تعترى الإنسان فى كبره، مما لا يجعله يفرض أخباره وأحاديثه على القارئ يقول: "فإن العمر طال ولزمت الانفراد والاعتزال، والنسيان متوارث متقادم"[2].

ويمكن أن نضع مبدأ هو أن الاعتماد على الذاكرة قد يعرض الإنسان لنسيان أو خلط بين الأمور. والتسليم أيضاً بأن الكاتب يمكن أن يصمت عن بعض الأحداث.

فأهم ما امتاز به فى تسجيل سيرته الصدق مع النفس، وعدم الغرور، فالحرب عالم كبير لا ضابط له، ففى نفس الوقت الذى يسجل فيه شجاعته وتحقيق النصر مع رفيقه جمعه يذكر هزيمتهما، ويعقب على ذلك بقوله: "فلا يثق إنسان بشجاعته ولا يعجب بإقدامه"[3].

فهو كما يسجل النصر لا يهرب من تسجيل الهزيمة ضارباً المثل الأعلى فى التعليم القتالى للفرسان، ففى الفروسية كثير من

(١) الاعتبار: ٢٠٠.
(٢) المرجع السابق : ٢٠٠.
(٣) المرجع السابق: ٨٠.

الجوانب التعليمية. ومعنى ذلك أنه لا يروى أخباراً عنه تزيد من تصوير قوته ومغامرته وفروسيته ورجولته بل يقص على القارئ ما يدل على جوانب ضعفه، ففى الحادثة السابقة يذكر لك أنه لم يكن وحده بل كان معه فارس آخر قوى يقويه ويعضده، والهزيمة تكون حينئذ أقسى وأشد، لاسيما أن هذا الرويجل هزمهما بنشاب وقوس، بينما كان مع أسامة ورفيقه فرسان عليهما أدوات القتال من حراب وسيوف ونشاب وترس.

والصدق الفنى أن يروى أشياء تقنع القارئ ويتعايش معها بحيث لا يدرك أنه يهزى بعقله، ومن ذلك أنه بعد وصف النصر على الإفرنج إذ يعترف بقوة فرساتهم، وأن واحداً منهم قتل أربعة فرسان من المسلمين[1]، فيثبت لهم القوة والعناد.

ويعترف بقلة الخبرة فى القتال فى فترات من عمره، فهو لم يكتسب الشجاعة والقوة إلا بعد عمر طويل، فقد خسر من رفاقه رجلين من أجود الرجال قتلهم الإفرنج بسبب قلة خبرته بالحرب[2].

ويقر بالخطأ فى القتال إقرار الفرسان المنصفين للحق، ففى إحدى المعارك يطعن رفيقاً له خطأ[3].

ومثلما يروى مكائد نصارى الإفرنج يطرق باباً من أبواب مروءتهم حتى ولو كانت من رجل حقير، ومن هذا مروءة مكار نصرانى أنقذ مملوكاً لأسامة من لصوص الجبال حينما أرسله إلى دمشق، ولم يكن مقصده سوى المروءة وإنقاذ المملوك المسكين من القتل[4].

---

(١) الاعتبار: ٩٠.
(٢) المرجع السابق: ١٧٢، ١٧٣.
(٣) المرجع السابق: ٨٦.
(٤) المرجع السابق: ١٠٢.

ومع اشتراط الصدق فى السيرة الذاتية وإثبات ذلك لدى أسامة، فإن أى باحث لا يمكن أن يجزم بأن كل شئ فى آية سيرة ذاتية يتحقق فى كلها جانب الصدق، ولكن يفترض أن نقول أنها أقرب إلى نفس كاتبها.

الشخصيات الثانوية:

جاءت فى سيرة أسامة الكثير من الشخصيات الثانوية التى ظهرت مرة أو مرتين فى حدث واحد أو اثنين ثم اختفت، وهى من شتى طوائف المجتمع من ملوك وأمراء وقواد ومحاربين وفلاحين ومن الرجال والنساء ومن العرب والأكراد والفرس والسودان والزنج.

ولم تأت هذه الشخصيات من باب الحشو أو الفضول أو قص الحكايات للسمر والمتعة أو لملأ أوقات الفراغ، بل جاءت لوظيفة فنية ملحة فى السيرة حيث كانت استدلالا على فكرة أو موقف معين يريد أن يوصله للقارئ؛ فكانت بمنزلة التطبيق على القول النظرى.

ومن ذلك شخصية الأمير معين الدين أُنز والى دمشق، الذى كان يقرب أسامة، وقد حزن كلاهما على فراق الآخر، وكان من خصائصه فداء الأسرى الذين يأسرهم الإفرنج من ماله رغبة فى ثوابهم وكان أسرع الناس إلى فعل الخير[1] وكانت دمشق تنعم فى كنفه بالاستقرار واليقظة فى محاربة الإفرنج.

أما شخصية شهاب الدين محمود بن قراجا[2] صاحب حماة فلم يكن كمعين الدين فى أفعاله حيث كان دائم الخصومة والخلاف مع أسامة وأبيه وعمه وقد تم الصلح بينه وبينهم، وقد اشترك مع أسامة فى قتال وحصار بلدة (أفامية) وجاءه سهم مسموم أصاب زنده من

(١) الاعتبار: ١٠٤.
(٢) المرجع السابق: ٦٩.

الحصن وهو بمعزل عن القتال، ولما انتهى القتال وصل إلى دار والد أسامة ليعالج جراحه، وأبى الرحيل ندماً على ما قدمه، لكن عم أسامة أمير الحصن أصر على رحيله إلى حماة خشية أن يتهم فى قتله، وقد مات بعد وصوله إلى حماة، ويقال إنه كان جباراً ظالماً يعتدى على العرب والمسلمين، واستراح الناس بهلاكه.

وقد جاء بهذه الشخصية ليبين الفرق بين سياسة وإدارة بعض الولاة فى عصر الحروب الصليبية عصر الخطر والمحن، وأن الخطر قد يكون داخلياً كما يكون خارجياً وأنه من الداخل أشد من خطر الإفرنج.

أما صلاح الدين الغسيانى فهو أحد القواد كان أكبر أمير لدى أتابك زنكى[1] ذا حيل ومكر شديد قال عنه أتابك: "ما يخاف الله ولا يخافنى"[2] وقد رأى أسامة منه ما يدل على هذا، فيحكى أن صلاح الدين رأى رجلاً من رجاله قد عدا وافلت منه رجل من الإفرنج، فأمر بضرب وسطه بالسيف ولا ذنب له إلا عدو الإفرنجى منه، وقلة مراقبة صلاح الدين لله تعالى، وكان لا يتورع فى سبى المعاهدين وأخذ ما لهم ونفقتهم وقد استدل به أسامة على فكرة تقلب المزاج لدى بعض قواد المسلمين، فهو يجاهد الإفرنج ويتعقب المعاهدين منهم. ويستحل مالهم، ويعاقب جنوده بلا هوادة وقت التهاون. وقد التمس أسامة العذر والعفو له لكن بلا تعليق يبين علة أفعاله سوى عدم الخشية من الله.

وربما كان يرى صلاحُ الدين الغسيانى أن التقصير من رجل من جنوده قد تكون عاقبته وخيمة بأن يحتل الإفرنج بلداً كاملا ويقتلوا أهله، وعقاب المقصر معروف فى حياة الجندية لكن ليس بهذه الصورة المسرفة على النفس.

---

(١) الاعتبار: ١٧٨.
(٢) المرجع السابق: ١٧٦.

ومن الشخصيات هذا الرجل الكردى من الأكراد اسمه (فارس) لم يكن من المحاربين، التحم فى قتال مع والد أسامة ضد الإفرنج، ولما انفصل القتال أخبره بأنه ما قاتل إلا لرد الجميل له، حيث أحسن إليه فى يوم ما، وقد دلل به أسامة فى موطن من يقاتل لرد معروف أو جميل.

ومن الشخصيات التى ذكرها ثم اختفت شخصية رجل كردى لم يسمه[1] كان دائم الصحبة لعم أسامة ووالده، وكان فارساً جيدا ومحاربا قويا فكبر وضعف بصره، فأجرى عمه له راتبا وألزمه مسجده، لكنه بعد أيام لم تطاوعه نفسه على ترك القتال، فجاء إليه وطلب منه رد الراتب وخروجه للقتال، فخرج وقتل من الإفرنج مع ما فيه من وهن وكبر، وقد جاء بهذه الشخصية ليدلل على حب فرسان المسلمين لحياة القتال، وأن القتل لهم فى الحرب أشهى من موتهم على فراشهم وعكوفهم فى المساجد.

وهذا رجل يدعى محمد بن سرايا[2] كان شاباً قوياً شديداً طعنه إفرنجى فى فخده بالقنطارية فدخلت فيه فأخذ يجذبها والإفرنجى يجذبها وما تزداد القنطارية إلا دخولاً حتى أتلفت فخذه ومات منها بعد يومين، وقد استشهد به على أن القوة والشدة والشجاعة لا تنفع إذا قُضى الأمر وجاء الأجل.

ورجل آخر يسمى (على بن الدودوية)[3] كان يجاهد الإفرنج بسرقة خيلهم من دون قتال، وقد جاء أسامة به ليدلل على أن جهاد الإفرنج كان بطرق متعددة من سرقة الخيل والعدة.

---

(١) الاعتبار : ٧٢.
(٢) المرجع السابق: ١١٢.
(٣) المرجع السابق: ٦٧.

وهذا اللص الذى يدعى (الزمركل)[1] الذى صوره أسامة بأنه كان يلبس غطاء النساء على رأسه ويتمثل فى زيهم، ويلبس ثوبا واحدا بلا سروال يستر عورته ويشد خيطاً رفيعاً حول وسطه به سكين قاطع يقتل به الإفرنج، وهو شخصية ساخرة تجاهد الإفرنج حسب مزاجها، لا ينام الليل ويدور حول حظائرهم ويسرق خيلهم وأسلحتهم، وله قدرة عجيبة فى النجاة منهم.

وقد تأتى الشخصيات الثانوية من باب المشاهدات بالإضافة إلى الاستدلال على قيمة موضوعية، ولا يعمل على نموها، ولكنها لها تأثير فى نمو الحدث مثل شخصية (ندى بن تليل القشيرى) الذى طُعن فى صدره وخرج الرمح من جانبه. لكنه شفى وبرأ منه، ورجل يقال له: (عتاب)[2] رجل أجسم ما يكون من الرجال مات من إبرة دخلت فى يده. فهاتان الشخصيتان جاء بهما فى أحداث قتال الإفرنج، ليطور فكرة أن الأقدار بيد الله وأن الموت لا يكون سببه طعنات الحرب العظيمة، وفى ذلك حض الناس على القتال وعدم مهابة الإفرنج.

ومن الشخصيات الثانوية التى طورها وبين نهاية ما آلت إليه شخصية (جواد) [3] وهو محارب شديد من رجال ابن عم أسامة، وكان جواد حكما فى الثقاف شجاعا مجربا خبيراً بالجلاد والضرب بالسيوف والطعن بالرمح، وصوره أسامة بعد ذلك وقد مرت السنون حيث رآه بدمشق وقد عمل علافاً يبيع التبن والشعير وقد كبر وبلى، ويعجز عن دفع الفأر عن علفه، وقد تعجب منه لأول أمره وما صار عليه فى آخر عمره.

(١) الاعتبار: ٦٤، ٦٥.
(٢) المرجع السابق: ٦٧.
(٣) المرجع السابق: ١٧٩.

ومن الشخصيات التى لم تتطور شخصية (ابن ميمون)[1] الذى تنازل له (بالدون) عن أنطاكية، وكان صبياً صغيراً، لكنه كان بلية عظيمة على المسلمين، فهاجم شيزر بعسكره، وقد صدهم أسامة ورجاله وقد وقف عند شخصية ابن ميمون عند هذا التصور ولم يطورها وكان بإمكانه أن يطورها لاسيما أنه ذكر أخباراً عن أمه وزوجها.

وشخصية (دنكرى)[2] صاحب أنطاكية الذى كان ملعونا ينقض عهوده مع المسلمين وينكل بمن يقع فى الأسر منهم، كثير الإغارة على ديار الإسلام يقتل ويسبى، ويفقأ أعين الأسرى ويقطع أرجلهم وأيديهم، وقد استشهد به على أن الإفرنج لا أمان لهم. ينكرون المواثيق والعهود.

ومن الشخصيات الإفرنجية (بدرهو)[3] وكان قائداً قوياً شجاعا هزم أربعة من فرسان المسلمين وحده، وله ذكاء فى فنون القتال والحيل، وقد أرسل الله عليه جنداً من جنوده، حيث قصد أنطاكية فى بعض شغله، فخرج عليه أسد فى طريقه، فخطفه عن بغلته ودخل به الغاب وأكله، وقد استشهد به على دفاع الله عن الذين آمنوا وأن لله جنوداً تحارب معهم.

تحليل طباع الشخصية:

ولا يكتفى بما تقوم به الشخصية من أعمال، وما يدور حولها من أحداث بل يتبع ذلك بتحليل طباعها، فيضع رؤيته فيها عن طريق المقارنة بين الأشخاص والموازنة بينهما. ومن أمثلة ذلك: تحليله

(١) الاعتبار : ١٤٣، ١٤٤.
(٢) المرجع السابق: ٨٩.
(٣) المرجع السابق: ٩٠.

لطباع شخصية الوزير (عباس) الذى كان ذا مكرٍ ودهاء، يعرف مراد من يدخل عليه حتى ولو لم يفصح عن قصده، فيقول متعجباً من طباعه: "وكأن الشياطين توسوس له بذلك" وكان مغرماً بالنجوم والطالع لا يسير إلا بعد معرفة طالعه"[١].

وهذا ما يعرف فى علم النفس بالفراسة فى الأشخاص من خلال عيونهم ووجوههم وما تنطق به من معان ودلالات.

وأحياناً لا يذكر الشخصية باسمها ويركز حديثه عن طباعها فهو المقصود فى نظره ومن هذا تحليله لطباع رجلين اختلفا فى تقديم البر والمعروف له، فهذا رجلٌ صالح أنقذ أسامةَ بعد خروجه من مصر حيث أراد صعود جبل للاختباء فلم يستطع، فجاء فمسك بيده وأطلعه الجبل ثم مضى لا يطلب شيئاً ولا أجراً وبفعلته نجا من الهلاك، بينما شرب شربة ماء من رجل تركى فى نفس الوقت الذى حدثت له فيه الحادثة السابقة، فأعطى التركى دينارين على هذه الشربة، وما زال التركى يلازمه ويتبعه ويلاحقه فى الطريق ممتناً عليه بشربة الماء ويطلب منه قضاء حوائجه ويتوصل إلى أغراضه لأجل هذه الشربة التى سقاها ويطلب المزيد والمكافأة عنها.

وكان هذا من قبيح الطباع وأخبثها[٢].

ومن تحليله للشخصيات: بيان تفاوتها فى التحمل والجلد، فهذا التركمانى أصابته نشابة صغيرة ما دخلت فى جلده مقدار شُعيرة وهو رجل أجسم ما يكون من الرجال، فتعبت نفسه حيث لم يطق ذلك، فاسترخى وانحلت أعضاؤه، وانقطع كلامه وغاب ذهنه، ومات منها[٣]. أما هذا المحارب الضئيل فى بنيته فقد دخلت القنطارية فى

(١) الاعتبار: ٤٧.
(٢) المرجع السابق: ١١٦.
(٣) المرجع السابق: ١٢٦.

صدره وخرجت من جانبه، فصبر وتجلد وكتبت لـه الحيـاة وعـاد يحارب كأول مرة[1].

ويقارن بين طباع الشيخ وبين طباع الشاب فى الحرب، حيث يتميز الأول بالخبرة والرؤية الناضجة، والثانى بالتسرع وعدم الرؤية والغرور فهذا المقاتل (جمعة) كان شيخاً كبيراً يقتل فارساً إفرنجيا شاباً جلداً ويعلق أسامة على ذلك "بأن الكهل له ميزة السن والتقدمية فى الشجاعة"[2].

ويذكر أن من المفارقات الإنسانية فى طباع البشر أن الإنسان يخوض الغمرات ويركب الأخطار، ولا يرتاع قلبه، ويخاف مما لا يخاف منه الصبيان[3]، فقد كان عمه وهو من أشجع أهله، إذا رأى الفأرة تغيرت صورته، وقام من الموضع الذى يراها فيه[4].

وهذا المحارب الذى كان من أشجع الرجال وأقدمهم، يهجم على جماعة الإفرنج وحده فيكاد يقتلهم جميعاً، وهو رام جيد، كان إذا رأى الحية فى بيته يخرج منهزماً ويقول لامرأته دونك والحية، فتقوم إليها تقتلها[5].

الصراع:

القارئ لسيرة ابن منقذ فى الاعتبار ربما لا يدرك مناحى الصراع بين جنباتها من أول نظرة، لكن المتدبر والمتأنى يدركه. حقيقة ليس هناك صراع تقليدى كما فى الرواية والقصة يصل

(١) الاعتبار: ١٢٦.
(٢) المرجع السابق: ٥٩.
(٣) المرجع السابق: ١٦٠.
(٤) المرجع السابق: ١٦٠.
(٥) المرجع السابق: ١٦١.

بالشخصيات إلى حد التصارع وتعقيد الحدث ثم الوصول من الصراع إلى نقطة النهاية، فكتاب الاعتبار سيرة ذاتية لصاحبه يسجل فيه أغلب ما ألم به وبعصره، وقد تفوته بعض الأحداث عمداً أو سهواً لكنه لا يشعرك بشئ من الصراع الظاهرى فى الأحداث، بل يترك لبصيرتك ملاحظة ملامحه فى سيرته وهو من النوع الخفى الذى يستتر خلف رواياته وأحداثه وشخوصه وأسلوبه وآرائه.

وتظهر مستويات الصراع فى سيرته فى الآتى:

- الصراع النفسى داخل أسامة.
- الصراع بين الحضارتين العربية والإفرنجية.
- الصراع بين بعض الشخصيات.
- أما الصراع النفسى داخله فقد أفصح عن العديد من المواطن التى انتابه الصراع فيها، منها:

الصراع بين عاطفة البقاء فى (شيزر) موطنه وأحب أرض الله إليه وبين الذهاب إلى دمشق، حينما أمره عمه بتركها، وهو لا يذكر أسباب ذلك تاركاً الأمر لفطنة القارئ – احتراماً لعمه الذى كان ينزله منزلة أبيه من أن يذكره بسوء. يقول "فانقضت الحال مسيرى إلى دمشق...."[1] كذلك الصراع بين عاطفة البقاء فى دمشق بعد أن وجد فيها عوضاً عن شيزر فى ظل الأمير معين الدين، والذهاب إلى مصر يقول: "ثم جرت أسباب أوجبت مسيرى إلى مصر، فضاع من حوائج دارى وسلاحى وأملاكى ما كان نكبة أخرى"[2] فهو يكشف أن

(١) الاعتبار: ٢٧.
(٢) المرجع السابق : ٢٨.

الظروف أجبرته على ترك دمشق ولكنه لا يبين أسباب ذلك ولولا هذه الظروف والأسباب ما ترك شيزر ومن بعدها دمشق.

الصراع الداخلى فى نفسه ما كشفت له جدته عن شعور عمه نحوه وهو شعور الكره والبغض، وأن أعمال الفروسية والفداء وتحدى المخاطر تزيد عمه بغضا له، لكنه لم يظهر شيئا نحو عمه، وظل يحتفظ بمودته وبره، لكن هذا لا يمنع أن صر اعاً داخلياً كان يدور فى ضميره من شعور عمه نحوه لاسيما أن هذا الشعور كان خافياً ولم يترجم إلا بعد وفاة والد أسامة، حيث أجبره عمه على ترك الحصن. ولعل قول أسامة فى هذا الشأن ما يدل على هذا الصراع يقول مخاطباً جدته: "قلت: يا ستى، إنما أخطار بنفسى لأتقرب إلى قلب عمى. قالت: لا والله ما يقربك هذا منه وإنه يزيدك منه بعدا ويزيده منك وحشة ونفورا. فعلمت أنها – رحمها الله – نصحتنى فى قولها وصدقتنى"[1].

والصراع النفسى داخله وقت حصار الروم والإفرنج لشيزر فقد كلفه صلاح الدين الغسيانى أمير جيوش أتابك بالسير فى هذا الوقت فى مهمة إلى الموصل[2] فكان هذا الأمر من الهم والبلاء العظيم على قلبه؛ إذ كيف يترك أهله وإخوته وأولادد محاصرين فى شيزر ويذهب إلى الموصل، فكان صراعاً نفسياً كبيراً، وأراد أن يفلت من صلاح الدين الغسيانى ويشارك فى صد الإفرنج عن شيزر، لكن صلاح الدين أرسل إليه حتى ينفذ المسير إلى الموصل حيث قبض على أهله والمقربين له بحيلة ومكر فما كان منه إلا الاتجاه نحو الموصل.

---

(١) الاعتبار: ١٤٧.
(٢) المرجع السابق: ٢٧.
(٣) المرجع السابق: ٥٦.

وكذلك من الصراع النفسى داخله بين أن يتولى مدينة أسوان[1] بأمر الصالح طلائع بن رزيك وبين ترك مصر فى وقت الفتنة وقد استشار فى هذا نور الدين محمود الذي نصحه بعدم قبول ذلك، ويبدو أن حاجة فى نفسه كانت تدعوه إلى تولى هذا الثغر.

أما الصراع بين الحضارتين العربية والإفرنجية فقد كشف عن أوجه عديدة منه بين الحضارتين الذى هو متجدد فى كل زمان ومكان وأعطانا فيه الفرق بين الحضارتين فى الجوهر والأصل، ومن أمثلة ذلك:

إن أسرى المسلمين تُضرب رقابهم بينما أسرى الإفرنج لهم كل الحقوق الإنسانية التى نصت عليها الملة السمحاء، فهو يذكر هجوم (روجار ابن أخت ملك انطاكية) على كفر طاب وهزيمة المسلمين آنذاك حيث اقتسم أمراء الإفرنج الأسرى المسلمين[2]، ويأمر أمير جيوشهم بضرب رقابهم فضُربت جميعاً فى حين لم يفعل أسامة وقومه بأسرى الإفرنج شيئاً من ذلك، ولم يحدث أن ضرب فارسُ مسلم رقبة أسير إفرنجى.

ويذكر حادثة أخرى فى (كفر طاب) حينما تركها الإفرنج بعد هزيمتهم وقد أحرقوها ودمروها، فكان ورجاله يخرجون أسرى الإفرنج بعد فرار جيشهم[3] من النار، وقد احترق بعضهم ومات آخرون، وقد أنقذ منهم خلقاً كثيراً من نارهم.

ومعاملة العرب لمن يفد إليهم من الإفرنج متعلماً أو قاصداً لبيت المقدس، فيذكر أن الإفرنج فى وقت الهدنة والمسالمة كانوا يرسلون فرسانهم كى يبصروا فرسان العرب[4] فى التدريب والتعلم

(١) الاعتبار: ٩٩.
(٢) المرجع السابق: ٩٨.
(٣) المرجع السابق : ٩٢.

للقتالى، ويرسلونهم إلى بيت المقدس، فما يكون من فرسان العرب إلا العناية بأمرهم وإكرامهم ونزولهم أحسن منزل، بل إنه يذكر من العبارات ما يشير إلى أنه كان يوصى بهم خيراً حتى يعودوا إلى ديارهم سالمين، أما هم فكانوا دائماً يتربصون بالعرب فى الثغور قتلاً وتدميرا.

ويعطينا فرقاً جوهرياً فى الصراع بين الحضارتين فى أخلاق الفرسان العرب فى القتال ومعاملة الجرحى والأسرى وبين معاملة الإفرنج لمن يقع تحت قبضتهم من الفرسان والجرحى والأسرى العرب فيذكر هذه القصة[1] التى وقعت فى الحرب مع (دنكرى) صاحب أنطاكية، حيث كان لوالد أسامة فارس اسمه (حسنون) اندفع فى القتال فطُعن وجُرح، ورُمى وسط موكب الإفرنج فأخذوه أسيرا وعذبوه أنواع التعذيب وأرادوا قلع إحدى عينيه تنكيلا به. فقال (دنكرى) – لعنه الله – لمعذبيه اقلعوا عينه اليمنى حتى إذا حمل الترس استترت عينه اليسار فلا يبقى يبصر شيئاً، فقلعوا عينه اليمين كما أمرهم، وبعد قلع عينه لم يتركوه، لأنه كان من أجود الفرسان وأندرهم وأشجعهم، وكأنه يعود لقاتلهم بعين واحدة !! فطلبوا فى فدائه ألف دينار وحصاناً أدهما فافتداه والد أسامة وأرسل إليهم الفداء لمنزلته الطيبة عنده. ومن العجيب أن (حسنون) هذا قد قابل (دنكرى) قبل أسره بزمن فى وقت الصلح وأعُجب (دنكرى) به لسباقه الخيل. وحضر بين يديه وكشف عن سواعده وأعجب من دقته وشبابه، وقال له حسنون: أريدك تعطينى الأمان إن ظفرت بى فى القتال وتطلقنى، فأعطاه الأمان، وما كان أمانه إلا قلع عينه وألف دينار وحصان !!

ومن أوجه الصراع بين الحضارتين العربية والإفرنجية يرينا ابن منقذ وجهاً مشرقاً مضيئاً من هذه الأوجه فى زهد فرسان

(١) الاعتبار: ٨٩.

المسلمين وأن قتالهم من أجل العقيدة، وأن الإيمان قد صدق قلوبهم وجوارحهم؛ فهم يخوضون القتال بلا ماء ولا زاد، والقليل من المؤن يكفى رجالاً كثيرين، لإيمانهم القوى بما هم فيه من حرب، وأن النصر من عند الله، وهو معهم، وأخبر بما فى نفوسهم ومطلع على رقة حالهم! "فهذا الفارس العربى وكان يدعى (حمدات) يسأله والد أسامة وهم سائرون إلى إحدى المعارك لقتال الإفرنج: أكلت اليوم شيئاً ؟ قال: نعم يا أمير، أكلت ثريدة، فقال له والد أسامة: ركبنا فى الليل، وما نزلنا ولا أوقدنا ناراً. من أين لك بالثريدة ؟ قال: يا أمير عملتها فى فمى. أخلط فى فمى الخبز وأشرب عليه الماء فيصير ثريدة"[1].

فهذا الفارس النبيل يطمئن قائده الأمير بشئ مقصود وهو القوة الروحية والجسمية وأنه سائر معه فى أطيب صحة وعافية وهو جدير بأن يقتل من الإفرنج مقتلة، ألم يأكل ثريدة؟! والثريدة من أطيب وأنعم الأكل عند العرب أنها اللحم والمرق والخبز. يا لله من فارس مؤمن يوقن بأن النصر لا يترتب على ملئ البطن وتخمتها وهو لم يأكل شيئاً سوى كسرة خبز يابسة استعان عليها بقطرات من ماء وضعها فى فيه، وكذلك كان حال الجيش كله معه لم يأكلوا شيئاً وعند ذلك يتيقن الأمير والد أسامة أن النصر آت لا محالة، هذا هو فرق الصراع الروحى بين فرسان العرب آنذاك وفرساننا اليوم، ورجال الماضى ورجالنا اليوم وحضارتنا أمس وحضارة العرب أمس واليوم، وفكر محاربى المسلمين يوم أن تكالبت عليهم حملات الصليبيين فى القرن السادس الهجرى فليتنا نستمد منهم هذه الروح .

أما الصراع بين بعض الشخصيات الثانوية فمن أمثلته الصراع بين امرأة عمه وبين أبنها الذى أراد ترك القتال[2] فكانت تنهره

(١) الاعتبار: ٧٤ بتصرف.
(٢) المرجع السابق : ١٤٤.

وتدفعه إلى ساحات القتال من دون رغبة منه حتى أصبح من الفرسان المعدودين.

وهذه المرأة التى بالغ زوجها فى إيذاء المسلمين[1]، وكان يعاون الإفرنج فى قتال فرسان المسلمين، فصبرت عليه فلم ينته وأخفت عليه مرادها ومقصدها، وأرسلت إلى أخيها من بلد آخر، فتعاون معها فى قتل زوجها، وخلّصا المسلمين من شرد، وهذه المرأة لابد أن يكون دار فى عقلها صراع نفسى بين بقاء الزوج وبين التخلص منه قاصدة وجه الله فى قتله.

والصراع الذى دار بين الوزير المصرى عباس وبين ابنه نصر واختلاف الاثنين حتى قتل الثانى الخليفة الفاطمى الظافر وقد كاد الابن أن يقتل أبيه[2].

وكل ما قدمت سابقاً يجعلنى لا أتفق مع الدكتور إحسان عباس الذى يقول عن الاعتبار. "ولا يبرز الكتاب قوة الصراع من الناحية الفكرية"[3] فالمسألة لا تحتاج إلى دليل وبرهان.

الحوار:

يعد الحوار جزءاً رئيسا فى العمل القصصى، وله دورد الوظيفى فى البناء الفنى وهو يكشف عن نشاط الشخصية واتجاهها وأفكارها وطباعها وتصرفها السلوكى وانفعالاتها الوجدانية، وقد كشف الحوار فى سيرة ابن منقذ عن عدة مستويات هى: الإبانة بدقة عن شخصية أسامة، تصوير الشخصيات ونفسياتها من خلال الحوار، المستوى اللغوى للحوار.

---

(١) الاعتبار: ١٤٧.
(٢) المرجع السابق: ٤٢.
(٣) فن السيرة: ١٢٨.

فقد كشف الحوار عن جوانب متعددة من شخصية أسامة منها: الإيمان العميق بالله والثقة به جل وعلا، فهو ينهى الكثير من الأخبار بعبارات حوارية ترجع جميع الأمور إلى مشيئة الله تعالى سواء فى النجاة أو الموت، فيقول عن شفاء فارس من أصحابه قد قُطعت ناصيته نصفين وصدره، وما كان يُظن أن يعيش فإذا به قد عاش وعاد إلى ركوب الخيل: "فسبحان الله من نفذت مشيئته فى خلقه يحى ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير، وهو على كل شئ قدير"[1].

بينما فارس آخر يموت بعلة جراحية يسيرة يقول عنه: "وما كان به إلا فراغ الأجل"[2] فهو يعزو وفاته إلى انقضاء أجله لا بسبب جراحه، حتى يحرض الناس على الشجاعة القتالية وأنها لا تقصر العمر.

وهو لا يحب إراقة الدماء، ومن ذلك حكايته عن صلاح الدين الغسيانى فى حصاره لحصن (ماسر)، فلما نقب رجاله برج الحصن وقع فى إيديهم رجلان واحد قد مات والآخر أخذوه إلى صلاح الدين الغسيانى، فقال: وسطوه بمعنى اضربوا وسطه بالسيف فيقطع نصفين فقال أسامة محاوراً لصلاح الدين راجياً عدم إراقة دم الرجل: "قلت: يا مولاى هذا شهر رمضان، وهذا رجل مسلم لا تتقلد إثمة !! قال وسطوه حتى يسلموا الحصن، قلت : يا مولاى الحصن الساعة تملكه ! قال: وسطوه، ولج فيه، فوسطوه، وأخذنا الحصن فى ساعتنا تلك"[3].

وهو يرفض الاشتراك فى المؤامرات ومن هذا حينما همَّ نصر بن عباس أن يقتل أبيه بتحريش من الخليفة فأراد أن يأخذ رأى أسامة الذى رفض فعلته ومنعه من قتل والده يقول محاوراً لنصر:

---

(١) الاعتبار : ٦٥.
(٢) المرجع السابق: ٧١.
(٣) المرجع السابق : ١٧٧.
(٤) المرجع السابق: ٤٣.

"فقلت يا مولاى لا يستزلك الشيطان وتنخدع لمن يغرك، فما قتل والدك مثل قتل العادل – أى ابن السلار – فلا تفعل شيئاً تلعن عليه إلى يوم القيامة"(١).

والحوار يكشف عن تهدئة أسامة للفتنة فى مصر، وكان ذلك لما حدث بين الوزير عباس وابنه نصر، وقد حدث بينهما كرد وانعكست فى فتنة عامة بين الناس يقول مهدئاً ما بينهما من بغض: "فقلت لعباس: يا مولاى، كم تلوم مولاى نصر وتوبخه وهو ساكت ؟ اجعل الملامة لى، فأنا معه فى كل ما يعمله، ما أتبرأ من خطئه ولا صوابه أى شئ هو ذنبه ؟ ما أساء إلى أحد من أصحابك، ولا فرط فى شئ من مالك ولا قدح فى دولتك، خاطر بنفسه حتى نلت هذه المنزلة، فما يستوجب منك اللائمة، فأمسك عنه والدد"(٢).

كذلك كشف الحوار عن حنكته ومشورته وتدبيره ومن ذلك مشورته على ابن السلار، وقد خرج الجند على طاعته حيث يقول له: "قلت يا مولاى، نركب إليهم فى السحر وما يضحى النهار إلا وقد فرغنا منهم، إن شاء الله تعالى. قال: صواب، أبكر فى ركوبك، فخرجنا إليهم من بكرة، فلم يسلم منهم إلا من سبحت به فرسة فى النيل"(٣).

ويكشف الحوار فى مواطن عديدة عن شجاعته ومن ذلك أنه كان يحارب على فرسه بلا ركاب، وهذا الحوار يدل على فروسيته وشجاعته حيث إنه لما رأى الناس فى شيزر فى المخاض، يركب بعضهم بعضا ويقولون الإفرنج، تقدمهم بلا ركاب يقول: "فعبرت المخاض، وقلت للناس لا بأس عليكم، أنا دونكم، ثم طلعت أركض إلى رابية القرامطة وإذا الخيل مقبلة فى جمع كثير، وقد تقدم منهم فارس لابس زردية وخوذة وقد دنا منى، فقصدته استفرص بعدد من أصحابه

(١) الاعتبار: ٤٢.
(٢) المرجع السابق: ٣١.

واستقبلني، فحين حركت حصاني إليه انقطع ركابي وما بقي لي مندوحة عن لقائه فيممت إليه بلا ركاب، فلما تداننا لم يبق غير الطعن"[١].

ويكشف الحوار عن خبرته بالحياة فمن طول مراسه للقتال يعرف أدوية الجروح والطعنات ومن ذلك أن رجلا من أصحابه أصيب بجراح كثيرة فجاءه أخوه، وقال له أخي تالف فقال أسامة "قلت: ارجع افصده، قال: قد خرج منه عشرون رطلاً دم. قلت ارجع افصده فأنا أخبر منك بالجراح، وليس له دواء غير الفصاد، فمضى ثم عاد وهو مستبشر قال: أنا فصدته وهو أفاق وجلس وأكل وشرب، قلت الحمد لله، ولولا أني جربت هذا في نفسي عدة مرات ما وصفته لك"[٢].

والحوار له أثر كبير في تصوير الشخصيات ونفسياتها، فالأمير معين الدين أنز صاحب دمشق من خلال حواره يتبين أنه محب لأسامة وفيّ له يقول لأسامة: "والله لو أني معي نصف الناس لضربت بهم النصف الآخر ... وما فارقتك"[٣].

ويبين الحوار رعب وخوف بعض ولاة العرب من الإفرنج ومنهم ناصر الدين ياقوت والي عسقلان، وذلك حينما رأى أسامة ورجاله المحاربين قد وصلوا إلى عسقلان في السحر ومعهم أثقالهم الحربية فقال: لأسامة ارفعوا أثقالكم فقال عليه: "قلت: تخاف لا يغلبونا الإفرنج عليها ؟ قال نعم. قلت: لا تخف، هم يرونا في البرية ويعارضونا، إلى أن وصلنا إلى عسقلان، ما خفناهم، نخافهم الآن ونحن في مدينتنا؟[٤]".

---

(١) الاعتبار: ١٦٢.
(١) المرجع السابق: ٥٦.
(٣) المرجع السابق: ٢٨.
(٤) المرجع السابق : ٢٧.

ويكشف الحوار عن خبرة عمه وثقافته الحربية واتخاذ القرار بناءً على عمق هذه المعرفة، وذلك أن الإفرنج أغاروا على شيزر فى ثلث الليل الأخير فمنع أن يتبعهم أحد من رجاله وقال: "هذه مكيدة. الإغارة تكون بالليل ؟؟!" (١) بينما خرج بعض الرجال يتبعون الإفرنج من دون علم أسامة وعمه فقتلهم الإفرنج وكان هذا بغيتهم أن يستدرجوهم خارج شيزر.

ويصور خوف أستاذه ابن المنيرة من القتال من خلال حواره معه حيث يقول له: "ما يقاتل عاقل"(٢).

وتصوير حب الفرسان للقتال فهذا الفارس الذى رُفع اسمه من ديوان الجند لكبره فأبى وجاء إلى عمه أسامة وقال له: "يا أمير، والله. ما تطاوعنى نفسى على القعود فى البيت، وقتلى على فرسى أشهى إلىّ من موتى على فراشى". فما كان فمنه بعد ذلك إلا أن طعن الإفرنجى (كونت سردان) طعنة عظيمة قتلته، فتعجب عم أسامة من همته وحبه للقتال.

ويصور الحوار شرف الفرسان وأنفتهم فى القتال، وحمل أنفسهم على ركوب الأخطار، ومن هؤلاء هذا الفارس الذى جاء أسامة فى الحرب فدار هذا الحوار بينهما: "فجاءنى رجل من أجنادنا وفرساننا المعدودين يقال له (جمعة)، وهو يبكى فقلت له: ما لك يا أبا محمود ؟ هذا وقت بكاء ؟ قال: طعننى (سرهنك بن أبى منصور) قلت: وإذا طعنك أى شئ يكون ؟ قال: ما يكون شئ إلا يطعننى مثل سرهنك، والله إن الموت أسهل علىَّ من أن يطعننى، لكنه استغفلنى واغتالنى، فجعلت أسكتَه وأهون عليه، فرد رأس فرسه راجعاً، فقلت: إلى أين؟ قال: إلى سرهنك، والله لأطعننه أو لأموتن دونه، فغاب

(١) الاعتبار: ٢٧.
(٢) المرجع السابق: ٢٧.
(٣) المرجع السابق: ٥٩.

ساعة، ثم عاد، وهو يضحك، فقلت: ما عملك ؟ قال: طعنته والله، ولو لم أطعنه لفاضت روحى"[١].

تصوير المستوى الثقافى من خلال الحوار فهو يوضح خبرة البازيار (غنائم) بدقائق الطيور، وينبه على أن عالم الحيوان والطير والصيد هو علم وفن، وليس الأمر تسلية يقول: "خرجنا يوماً إلى الصيد من حصن شيزر فرأينا شيئاً، وإذا كركى مطروح على الأرض فنزل غلام قلّبه، وإذا هو ميت وهو حار ما برد بعد فرآه (غنائم) قال: هذا قد اصطاده اللزيق، فتش تحت جناحه وإذا جانب الكركى مثقوب وقد أكل قلبه. فقال غنائم هذا جارح مثل العوسق يلحق الكركى يلصق تحت جناحيه يثقب أضلاعه ويأكل قلبه"[٢]. فهو يعرف الطائر من النظرات الأولى له ويدرك ماذا حدث له لخبرته وعلمه بعالم الجوارح.

ويعتمد صاحب الاعتبار أحياناً على الحوار الداخلى النفسى يجريه بين نفسه والمقصود منه توجيهه للقارئ، فمن الحوار النفسى أنه لما مرّ بأهل الجفر فى طريقه إلى الشام فسألهم من أين تعيشون؟ قالوا من الرمة – يعنون العظام البالية الملقاة – ندقها ونعمل عليها الماء وورق القطف، ونتقوت به، فقال لهم: فلم لا دخلتم دمشق؟ قالوا: خفنا الوباء"[٣] فيأتى حواره الداخلى منكراً ساخراً منهم حيث يقول: "ولا وباء أعظم مما كانوا فيه"[٤].

ويعلق تعليقاً نفسياً على بطرك الإفرنج الذى أقام خيمة فى إحدى حروبهم وفرشها بالحلفاء والحشيش، فكثرت البراغيث فيها، فأحرق الحلفاء والحشيش، وعلقت النار بالخيمة، فانكشف أمر الإفرنج، فيقول "فهذا لم يحضره العقل فى القتال"[٥].

---

(١) الاعتبار: ٢٢٧.
(٢) المرجع السابق : ٣٥.
(٣) المرجع السابق: ٣٥.
(٤) المرجع السابق: ١٠٨.

وقد يجرى حواراً باللغة الدارجة سواء حواره مع ذاته، أو مع الآخرين، أو حوار الآخرين ومن ذلك قوله فى أول قتال له: "وكان معى مملوك صغير يجر فرساً لى دهماء، وتحته بغلة، فنزل عن البغلة، وسيبها وركب وركب الحجرة – يقصد فرسا – فطارت به إلى شيزر، فلما عدت إلى أصحابى سألت عن الغلام، فقالوا: راح، فعلمت أنه يصل إلى شيزر ويشغل قلب الوالد، فدعوت رجلاً من الجند وقلت: تسرع إلى شيزر تعرف الوالد بما جرى"(١).

ومن أمثلة هذا الحوار الدارج حين المكيدة للوزير عباس فى مصر وقد خرج العامة للكيد له، فخرج عليهم غلامه الكبير ويسمى (عنبر) حيث صاح فى الناس وشتمهم وقال: "روحوا إلى بيوتكم. فسيبوا الدواب"(٢).

الزمن :

يحتفى كاتب السيرة الذاتية بالزمن؛ لأنه يسرد أحداثاً حقيقية. حدثت فى أوقات معينة، لا مجال للخيال فيها – إلا نادراً – وبالقدر الذى يساعده على البناء الأدبى الفنى وهو بذلك يحاول أن ينقل الزمن الخاص به إلى زمن عام والحدث التاريخى الذى يعاصره من حدث تاريخى مجرد إلى حدث ذاتى فعال.

ويكشف الزمن عن عمق العلاقة بين الكاتب وما يجسده من أحداث، فالحدث يوضع فى الوعاء الزمنى فى العمل القصصى، فهو من العناصر المهمة التى يقوم عليها، وله أهمية فى السرد الروائى. ومن أساسيات تشكليه، وله دور فى تجسيد الأبعاد التاريخية والسياسية والاجتماعية، فالتغييرات التى تحدث فى الواقع الإنسانى

(١) الاعتبار: ٦٣.
(٢) المرجع السابق: ٤٨.

ترجع إلى الزمان فهو يحكم الجنس الروائى فى مستوياته المختلفة وعلة ذلك "أن القص هو أكثر الأنواع الأدبية التصاقاً بالزمن"(١).

ويتجلى الزمن فى سيرة ابن منقذ فى أنه سرد استرجاعى ينطلق من العودة إلى الوراء، فقد كتب سيرته وهو فى التسعين من عمره، ثم يأخذ من الماضى نقطة انطلاق إلى سرد استشرافى حيث ينطلق من نقطة تعد هى الحاضر ويمضى بها إلى الماضى، ويتميز الزمن عنده بأنه صاعد تتبايع فيه الأحداث ولا تتوقف وتتسم بالسعة والكثرة.

وإذا كان قد اتخذ الذاكرة مرجعاً لسيرته فإن الزمن المسيطر هو الماضى، وهذا يؤكد عبء وثقل هذا الزمن عليه وأن كاهله ينوء بتجلياته، ومن المسلم به أنه غاب عن ذاكرته أشياء كثيرة، لذا فهو يختار حكاياته من الزمن الماضى البعيد المشحون بكل الهموم والأشجان. وبالتالى فالزمن فى سيرته ليس حقيقاً المراد منه التعريف بالتواريخ بل هو زمن نفسى عقلى، فهو لا يقصد أن يقول حدث فى سنة كذا كذا أو فى يوم كذا كذا .... الخ.

ويمكن تقسيم الزمن فى سيرته إلى عدة مراحل هى:

- فى شيزر حياته الأولى ١٠٩٥م إلى ١١٣٨م:

ويمكن أن نطلق على هذا الزمن (زمن التكوين والإعداد) فهو يعيش فى كنف والديه وأعمامه فى حصن شيزر، وقد تربى تربية عربية أصيلة، فتعلم القرآن وأجاد فنون العربية درساً ونقداً، وتعلم الفروسية والقتال، وكان مطيعاً يجل والده وأعمامه، ونشأ شجاعاً

(١) بناء الرواية دراسة مقارنة الثلاثية نجيب محفوظ – سيزا قاسم:٢٦.

قوياً يقتل الأسود والحيات، وقد اشترك مع والده وأعمامه فى صد حملات الروم والصليبين على الحصن، ورأى بطولات الرجال والنساء فيه.

وهذه الفترة تقدر بثلاث وأربعين سنة من عمره كان فيها مثالا للفارس العربى النبيل، ولذلك بعد وفاة أبيه تغير عمه أمير شيزر نحوه وخاف أن يلى الأمر إليه، فأرغمه على ترك شيزر، وقد خرج من هذا الزمن رجلاً مجرباً معداً، وعلم مدى تغير القلوب حتى من أقرب الأقرباء، وأن الحال لا يدوم، ولم يندم على ذلك إذ أن رحيله عن الحصن كان من نعم الله عليه فنجا من الزلازل الذى دمره ومات كل من به.

- فى دمشق للمرة الأولى ١١٣٨م – ١١٤٤م:

ويمكن أن نسمى هذه الحقبة بزمن (الغربة) وتمثل ست سنين من عمره حيث ترك شيزر وقلبه ملئ بالألم عليها وعلى عمه الذى بدت منه البغضاء بعد موت أبيه، وكانت المرة الأولى التى يترك فيها الحصن، لكنه كان قد نال من الشهرة عند أمراء دمشق، فأرسل إليه أتابك عماد الدين زنكى قائد جيش دمشق ومعين الدين أنر أميرها وأجزلا له العطاء وخصاه بالإقطاع والضياع وميزاه بالتقريب والإكرام، وألزمه معين الدين صحبته لمعرفته لقدره وشجاعته وأدبه.

وقد شاهد فيها عدة حروب وأبدى شجاعة وفتكا على الصليبيين، لكنه لم يطب له البقاء فى دمشق طويلا، لأنه كان يريد أن يحقق لنفسه شيئا من القيادة والإمارة – والله أعلم – فرأى دمشق بين قائد قوى كريم وهو (أتابك) وأمير ميمون يؤثره على نفسه وهو معين الدين وكلاهما محبوب عنده، فتركها على غير رغبة من أميرها الذى قال له: أننى لو خيرت بينك وبين نصف الناس لاخترتك فتركها مكرها إلى مصر، وهذه الفترة الزمنية كما تبدو لم تعوضه نفسيا عن شيزر وطنه، وأحس بغربته فولى وجه لبلاد النيل.

- فى مصر ١١٤٤م إلى ١١٥٤م:

وهذه الفترة يمكن أن نسميها بزمن (البحث عن الذات والأحلام). فقد ترك دمشق رغبة منه ووصل إلى مصر، حيث قربه الخليفة الفاطمى وقطع له من الإقطاع والدور مالا يقطع إلا لأمير كبير وقربه من قصره، وقد استمرت إقامته فيها عشر سنين شاهد فيها من الفتن ما يؤسف له وما لم يتوقعه وهو الذى جاء إلى أرضها طالباً الآمان والآمال، حيث خرج الوزير بن السلار على الخليفة وقتل الوزير ابن مصال، وجلس مكانه فى الوزارة، وقتل المصريين والسودانيين بعضهم لبعض ويبدو أنه قد حقق لذاته وأحلامه شيئاً لا بأس به، فكان مستشاراً لابن السلار فى أموره السياسية، وأوفد سفيراً إلى نور الدين محمود لإعداد الحرب ضد الصليبيين فى بلاد الشام وجمع المال والسلاح والمدد، فقام بخير المهمة، وقاد عدة معارك ضد الصليبيين خارج مصر كان قائدها ورئيسها وبطلها فى (عسقلان) و(بيت جبريل) و(ينبى) وقد حقق فيها النصر على الإفرنج وقتل وأسر منهم الكثير، لكن الأمور سارت على غير وفاق فقد قُتل ابن السلار على يد عباس، وتولى الوزارة بعده وقرب أسامة وتآمر عباس على قتل الخليفة الفاطمى وأسرته، لكن المصريين يثورون عليه، فيفر إلى الشام ويقتل، ويخرج ابن منقذ من مصر جريحا، وتؤسر أسرته فى يد الإفرنج.

وفى هذه الفترة لم يكتمل له البحث عن الذات وتحقيق الطموح، وقد بدا له ضوء من الأمل فى أن يتولى مدينة أسوان أميرا عنيها من قبل طلائع بن زريك الذى جاء بجيشه إلى مصر، لكنه استشار نور الدين محمود الذى أشار عليه بعدم تولى أسوان فى زمن الفتنة.

ـ فى دمشق للمرة الثانية ١١٥٤م – ١١٦٤م.

عاد صاحب الاعتبار للمرة الثانية إلى دمشق حامداً الله على أياديه من بلاد النيل ووصلها ليكون فى خدمة نور الدين محمود الذى كان محسنا إليه خير الإحسان ويمكن أن نسمى هذه الفترة بزمن (الواقع والحقيقة) حيث كانت هى الفترة العملية فى حياته فقد شاهد وحضر فيها من الوقائع والحروب ما لا يحصى وكانت فترة جهاد حقيقى بين المسلمين والصليبيين، وقد سجل فى الاعتبار الكثير من طرائفها وعجائبها والجليل من المخاطر التى تعرض لها وتعرض لها مسلمو الشام، وفى هذه الفترة كان الطموح قد أخذ يختفى من نفسه. فكانت مهمته الأولى جهاد الإفرنج وتنتهى هذه الفترة وهو ابن السبعين.

ـ فى حصن كيفا بالعراق ١١٦٥م – ١١٧٠م:

ويمكن أن نسمى هذه الفترة بزمن (الانفراد ومفارقة الأوطان) وفيها كان قد بلغ السبعين وقارب الثمانين فترك دمشق بعد زمن البلاء والجهاد، وأقام فى حصن كيفا بالموصل بعد أن وهن عظمه ولم تعد نفسه تقدر على حمل السيف وقد قطع أسبابه بأسباب الأمراء والملوك، ويبدو أن هذا الزمن كان قاسياً عليه لبعده عن وطنه ومفارقة الأهل وأن سوقه لم تعد تنفق عليه، وقد لزم دارد وكتبه وصور نفسه بالأسير الصابر على قدّه والظمآن الذى لا يرد موردا.

ـ فى كنف صلاح الدين الأيوبى ١١٧٠م – ١١٨٨ :

فى هذه الفترة كاتبه صلاح الدين ودعاه إلى دمشق بعد أن تغلب على الصليبيين وكان معجباً به يحبه ويحترمه حافظا لديوانه منشدا له، واعتبر أسامة ذلك إنقاذاً ورحمة به لاسيما وقد بلغ التسعين ولا مال لديه ولا أهل وقد غمره بما هو أهل له من النعم

والرغائب، وفى هذه المرحلة ألف له كتاب الاعتبار، ويمكن تسمية هى الحقبة بحقبة (كتابة ووضع التجربة) حيث كتبه هادفاً من ورائه أن ينيه صلاح الدين ومن يأتى بعده من أن ركوب الخطر ومقارعة الغزاة لا تنقص من العمر شيئاً وأن النصر عليهم من الله ، داعيا صلاح الدين إلى الصبر والثبات والاعتماد على الله فى رد الصليبيين عن بقاع الإسلام، وربما كان صلاح الدين فى نظره هو البطل الذى افتقده طيلة حياته وكان يريد يوماً أن يكون مثله.

وهو يلتزم فى معظم سيرته بالسرد الزمنى المتسلسل، لكنه فى أحيان كثيرة بعدما يقص عليك شيئا فى كبر سنه، يعود مرة أخرى إلى طفولته، وقد يلجأ إلى إحداث فجوات انتقالية سردية، وذلك حينما يتذكر مشهداً أو موقفاً داخل الحدث الذى يرويه، وهذا ما جعل الدكتور شوقى ضيف يقول: "وليس فى هذه الترجمة الشخصية لأسامة أى ترتيب زمنى ولا أى نسق تأليفى، بل الأخبار أو قل الذكريات يأخذ بعضها برقاب بعض، ذكرى من الكهولة وذكرى من الشباب، وذكرى من الشيخوخة، أو قل أنها ذكريات مبعثرة"(١).

ولا أتفق معه الرأى فى ذلك فسيرة أسامة إن كان ظاهرها يوحى بعدم الترتيب للحوادث إلا أنها بالملاحظة الدقيقة نجد تحقق الترتيب المنطقى للحوادث وترابط الحكايات التى يرويها، ومن أمثلة ذلك: حينما تكلم عن الخيل يبدأ بالصبور منها، ثم صبرها فى القتال بوجه خاص، ثم يتحدث عن الضعيف منها بوجه عام، وحينما تكلم عن بطولات النساء بدأ بخبر امرأة تسقى الناس فى الحرب، ثم ذكر قصة بطولة امرأة أخرى فى شيزر، وثلث بالحديث عن قتال والدته، ثم هذه العجوز التى تضرب بالسيف فى مهارة وقوة، كل هذا تراد من دون اضطراب أو خلل فى التسلسل وخذ مثالاً عشوائياً من وسط

(١) عصر الدول والإمارات: ٨٢٦.

الكتاب، تجد مثلا حديثه عن الإفرنج قد بدأه بفضل ومنزلة الفارس لديهم، ثم يذكر أن الأمان لا قيمة له عندهم، ثم نقضهم المواثيق، ثم خداعهم ونقضهم الصلح، ثم قوة فرسانهم، وحيلتهم فى الشجاعة.

ولا شك فى أن كل هذا يضمه خيط واحد هو الحديث عن الإفرنج وهو ترتيب لا خلل فيه لا كما قال الدكتور شوقى ضيف.

ويمكن تسجيل بعض الملاحظات على الزمن فى سيرة أسامة:

- الزمن فى سيرته يشبه إلى حد قريب الزمن فى الرواية التى اتخذت ضمير المتكلم وعاء لها فقد كتبها بضمير المتكلم من الحاضر ثم العودة إلى الماضى، فهو يتكلم عن أحداث جرت وانتهت.
- اقتصر على سرد الأحداث الزمنية المهمة أو التى رأها مهمة أكثر من غيرها، فقد وقف عند زمن الكفاح والحروب والتنقلات والجهاد والصيد ولا شك فى أنه لم يقص كل الأحداث الزمنية التى شملها عمره المديد.
- المسافة الزمنية التى تناولتها السيرة طويلة نسبياً فهى تشمل أسفاره وتنقلاته وحروبه وتأملاته، فكان لابد له من اللجوء إلى أسلوب تسريع السرد الزمنى حتى يتمكن من اختزال أحداث حياته فى سيرة يضمها كتاب واحد، واعتمد أيضاً على الحذف إذ اقتصر على سرد أبرز الأحداث الزمنية التى أثرت فى حياته ويعرف الحذف الزمنى بأنه. "تقنية زمنية تقضى بإسقاط فترة طويلة أو قصيرة من القصة، وعدم التطرق لما جرى فيها من وقائع أو أحداث"[1].

(١) بنية الشكل الروائى د/ حسن بحراوى : ١٥٦.

- من الفجوات التى أحدثها داخل الترتيب الزمنى عرض بعض الشخصيات الجديدة التى لم يسبق له ذكرها، إذ لابد له من ترك الزمن والأخذ ى وصفها مثل شخصية الوزير (رضوان) الذى لم يتعظ الوزير عباس بنكبته وقد تكلم عنها اثناء الحديث عن الفتنة التى أحدثها عباس. لكن هذه الفجوة مرتبطة بالنسق الدرامى.
- أبان فى سيرته أن الزمن له أثر فى كاتبها، فهو يستفيد منه فيأخذ الحيطة والخبرة ويتأسف لفوات فائدة لو رجع إليها لاقتنصها.
- الزمن قوة فاعلة فى سيرته فهو يسير بالشخصيات نحو النماء الزمنى مثل شخصيته هو، ويسير بعضها نحو الفناء والموت والتوقف مثل شخصية ابن السلار وابن مصال وبعض فرسان المسلمين الذين استشهدوا.
- الوقفات الوصفية الزمنية تتنوع بين الطول والقصر تبعاً للحالة النفسية، فهو يوجز أحياناً ويفرط فى الطول أحياناً أخرى.
- إذا كان الزمن الطبيعى يقاس بمقاييس ثابتة – من الساعة إلى اليوم وإلى القرن، فإن الزمن النفسى هو الوعاء الداخلى لهذا الزمن الثابت، والزمن النفسى عند أسامة يتضح من تأثره بالزمن وتغير حالته النفسية تبعاً لتغير الزمن والمجتمع فهو مثلا لم يشارك فى الدسائس والمؤامرات حينما نزل أرض مصر، ولبى داعى الجهاد حينما نزل أرض دمشق، كذلك رؤيته لزمن الحروب الصليبية ، ورؤيته الخاصة لزمن صلاح الدين الأيوبى.

المكان :

معروف أن المكان يرتبط بحركة الإنسان فى السكن والترحال والإقامة ويرتبط بدلالات معينة فى الذاكرة، وهو يتشكل فى نفس الأديب حسب حالته النفسية وما جرى من أحداث سعادة وحزنا

وترتبط فى نفسه بهذه الارتباطات إيجاباً وسلباً، وتبدو أسماء الأماكن ذات قيمة فنية بما تضيئة فى ذهن القارئ من دلالات بحيث لو غيرنا أسماء هذه الأماكن انتفت هذه الفائدة ولذلك فالنص الأدبى "المفرغ من المكان إنما هو نص هش غير ذى قيمة"[1]. لأنه حين يفتقد المكانية فهو يفتقد خصوصيته وأصوليته[2].

وفى سيرته الذاتية نجد ابن منقذ قد تنقل بين أماكن متعددة فى دمشق، الشام، مصر، فلسطين، العراق، وذكر ألوانا متعددة بلادا، ومدناً، قرى، جبالاً، تلالاً، كهوفاً، آباراً، أودية، حصوناً، قلاعاً، أنهاراً، قصوراً، بيوتاً، أسواقاً، حمامات ..... الخ.

فمن تجليات المكان فى سيرته أنه يصور لك ملامحه الدقيقة بكل تفاصيله فهو يصور لك كيف كان يكافح الحيات ويقتلها فالمكان: قاعة داره، والحية أخرجت رأسها على إفريز رواق القناطر التى فى الدار، ثم يحمل سلما يسنده إلى جانب الدار فيقتلها ويلقيها وسط فناء الدار[3].

وقد يكون المكان جزءاً أصيلاً من الرؤية فى الحدث يبين مثلا حجم التضحية والعطاء، فهذا (الروشن[4]) وهو كوة مرتفعة فى جدار الحصن من داخله يشرف على واد عميق من سقط منه مات! فقد أجلست أمه ابنتها فيه أثناء هجوم الباطنية على الحصن فى غياب رجاله فإذا هوجم الحصن رمتها منه إلى الوادى فهلكت، وهذا أجمل فى نفسها من أسر ابنتها !!

(١) دلالة المكان فى قصيدة النثر: ٦٣.
(٢) ينظر جماليات المكان – غاستون باشلاء ترجمة غالب هلسا: ٦.
(٣) الاعتبار: ٢٥.
(٤) المرجع السابق: ١٤٥.

والمكان أساسى فى إبراز الحدث ومن دونه لا تقوم له قائمة ومن ذلك أنه حينما تكلم عن انتفاء الغيرة الجنسية عند الإفرنج وعدم غيرتهم على نسائهم ذكر (فراشاً[1]) فى غرفة نوم أحدهم، وقد جاء إفرنجى آخر ونام مع امرأة الأول فيه وباشرها، ثم دخل زوج المرأة الغرفة وشاهدهما ولم ينكر هذا الفعل الفاضح.

والمكان جزء من التصوير الفنى فى السيرة فهو يرسم صورة كأنها فى فيلم سينمائى (لمعسكر الإفرنج) وهذا اللص العربى وهو يدور به ليلا لسرقة خيلهم وأسلحتهم، وهو نوع من الجهاد اتخذ بعض العرب ضد الإفرنج.

وهذا (الجب) المظلم فى بلدة بيت جبريل من فلسطين الذى ينقل أسامة الأحداث فيه بعدسته فقد أسر الإفرنج ابن والى الطور من مصر، وألقود فيه، وقطعوا عليه لفكه وحريته ألفى دينار، فبقى فيه. وإذا ببدوى يأسر ويلقود معه، ويقطعوا عليه خمسين دينارا. فآسر ابن والى الطور أن تكون الخمسين عليه وأن يفكوا قيد البدوى المسكين. ففك على أن يذهب إلى أبيه ويأتى بالفدية، وإذا بالبدوى لا يأتى بها، ومرت خمسة أشهر وإذا به يطلع من ثقب بجانب الجب ويفك قيد صاحبه، ويحكى له أن له خمسة أشهر يحفر هذا السرب من قرية خربة حتى وصل إلى الجب. فكان من الوفاء ما لا يخفى، وكان العجب كيف اهتدى فى الحفر إلى أن طلع نقبه من جانب الجب، فالمكان يظلل التصوير بالعبرة وتوفيق الله ومكافأته لاجتهاد البدوى ومجازاة الإحسان إحسانا، ويزيح الستار عن الظلم الذى مارسه الإفرنج فى ديار الإسلام فضلاً عن الغزو، وحيلة البدوى فى تخليص الأسير تشير إلى قيم التضحية والعطاء فى النفس العربية.

---

(١) الاعتبار: ١٥٥.
(٢) المرجع السابق: ٣٥.

وملامح الإنسان وطباعه وأفعاله ترتبط بالمكان، فهو يصف (أرض الجفر)[1] وهى ما بين فلسطين ومصر، ورأى من يسكنها من البشر قد مسهم ضر عظيم، فيصفهم بأنهم قد يبست جلودهم على عظامهم ولا يأكلون إلا من الرمة والميتة أما إذا نزل بهم ضيف فهم يذبحون له ويطعمونه من غير طعامهم.

أما (وادى موسى)[2] وهو جنوب بيت المقدس بالقرب من مدينة (معان) فهو مكان جبلى قفر مر عليه وهو فى طريقه من مصر إلى الشام، وليس به ماء ولا زاد وبه عين واحدة يمنعها أصحابها. وقد سكن الوادى أناس من جنسه ذو مكر وخدع وقسوة يقتلون من يصل إليهم، وقد وصفهم بأنهم شياطين رجيمة وقد نجا منهم بلطف الله ورحمته ووصفه بأنه مكان سوء ذو مخاطر.

وتتعمق ذاته بفضاء المكان، فقد عمل على عدم وقوع المعركة حيث حال (نهر العاصى)[3] وهو زائد زيادة عظيمة بين وقوع معركة بين المسلمين والإفرنج فكلا الفريقين لا يستطيع أن يصل إلى الآخر وكان شعوره ملئ بالغبطة حيث استغل جنوده ذلك وسبحوا إلى الإفرنج وهم نيام وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وقد عمل النهر على حقن دماء المسلمين.

ودور المكان فى الخدعة الحربية يذكره فقد كان لبعض الأماكن تأثير فى المعركة حيث اتخذ أسامة ورفاقه (خانا)[4] لعمل الخدعة فوقفوا مستترين به، ويخرج منهم بين الحين والآخر خمسة أو ستة فوارس يوهمون العدو بأن وراء الخان جيشاً كبيراً وكمينا، فما كان منهم إلا أن رحلوا بعد هذا التوهم، وكفى الله المؤمنين شر القتال.

(١) الاعتبار: ٥٠، ٥١.
(٢) المرجع السابق: ١١٤.
(٣) المرجع السابق: ١٦٩.

ويتجلى أثر المكان الإيجابى والسلبى فى النصر والهزيمة فقد نزل المسلمون قبلى (ماء شيزر)[1] والإفرنج نزول شماليه فمنعهم المسلمون من الشرب والورود نهارا، فلما كان الليل رحلوا منهزمين إلى بلادهم وقد ظفر المسلمون منهم بالقتل والغنم.

وهذا الطريق الضيق المشرف على ميدان حصن شيزر[2] يقف به ثمانية من فرسان الإفرنج، وهذا المكان لا ينزل منه إلا من هذا الطريق الضيق، فاستغل أسامة الظروف الجغرافية له وأوقع هو وصاحب له الهزيمة بفرسان الإفرنج الثمانية وكأن هذا الطريق الضيق قد حارب معهما.

وفى نفس الوقت يقف هو وصاحبه فى نشوة النصر عليه بعد قتل الإفرنج، وإذا برويجل صغير قد طلع عليهما ويستغل نفس ظروف الطريق ويهزمهما فى الحال ويجردهما من سلاحهما، فقد هزمهما المكان أيضاً وفعل الرويجل بهما ما فعلاه بالإفرنج قبل لحظات.

وفى موقعة فى بلدة (أفامية)[3] يذكر أن للمكان أثره فى إدارة المعركة حيث التقوا بالإفرنج فيها فى (خراب) وهو مكان لا تستطيع الخيل أن تتصرف فيه لما به من الحجارة والأعمدة وأصول الحيطان. فلم يتمكنوا من الإفرنج. حتى تحولوا إلى باب الحصن وهناك دارت المعركة.

أما (مصر) فترتبط فى ذاكرته بأحداث حزينة مؤلمة له ولأسرته فحينما نزلها كان قد ترك وفرط فى أملاكه فى دمشق وضاع من سلاحه الكثير، وقد شاهد فيها من الفتن ما لا يروق له وقتل

(١) الاعتبار: ٩١.
(٢) المرجع السابق: ٨٠.
(٣) المرجع السابق من ٢٩، ٥٤.

الطوائف بعضهم لبعض إلى الحد الذى يصور فيه امتلاء سويقه بألف قتيل من المصريين والسودانيين، وشاهد تأمر الوزراء على بعض وعلى الخليفة واغتيال بعضهم لبعض وسفك دم الخليفة وقطع رأسه. ولم يخرج أسامة من مصر إلا وهو جريح، بينما وقعت أسرته فى يد الإفرنج عقب خروجها من مصر وضاعت مكتبته.

وأحياناً لا يهتم ببيان أثر المكان فيكون المكان عبارة عن علم على بلدة أو أرض فقط فمثلاً يذكر أن حروباً كثيرة دارت بينهم وبين الإفرنج فى حماه، كفر طاب، رفنية، حصن الجسر، حصن الصور، حصن البارعة.

وعلى الرغم من كثرة التحولات التى حدثت له فى أماكن كثيرة فى مصر، العراق، الشام، دمشق، فلسطين، إلا أن شخصيته كانت متماسكة لم تتحول عن جوهرها العربى الأصيل ولم تنهار، وظلت التجارب التى مرَّ بها فى هذه الأماكن بمنزلة الخبرات الثقافية التى تضيف إلى مخزونه ولا تغير من أعماقه.

ونشير أخيراً أنه فى بعض إشاراته إلى الأماكن التى حدثت فيها حروب مع الصليبيين كانت أسماء هذه الأماكن رموزاً لما قد يحدث فى أماكن أخرى من غزو الإفرنج.

السيرة الذاتية فى الاعتبار بين المأساة والملهاة:

جمعت السيرة الذاتية فى الاعتبار بين جانبى المأساة والملهاة، ففى حين يروى لك من الأحداث ما يفجعك ويألم قلبك ويروى خدك من الدمع، يسرد لك حوادث أخرى ينتزع بها السخرية والفكاهة، حتى تكاد تضحك بملئ فيك وأعلى صوتك.

فأنت تسمع صيحات القتلى وأنين الجرحى وزفرات الموتى، فتأخذك الرأفة بهم وتدعو لهم بالرحمة والسكينة، فهذا الرجل الذى يصيح ويسمع صراخه كل من بشيزر، وهو يموت على فراشه من

دخول إبرة صغيرة فى باطن يده، وهذا الغلام الذى يتقدم الركب فى الصحراء فيخرج عليه أسد فينتقيه، ويدخل به الغاب ويفترسه، وآخر مجاهد يقاتل الإفرنج ويصرعهم، ويصرع الأسود بينما أجله على لسعة عقرب صغيرة سامة، وهو يستحم بجانب النهر بعد بلائه فى قتل أسد.

ويصور لك كيف يفعل الإفرنج بأسرى المسلمين من تحريق وعاهات فى البدن بقطع الأيدى والأرجل من خلاف وفقأ الأعين.

وهذا الذى ملأ شيزر صياحاً على ابنته التى أسرها الإفرنج فيجدونها على حافة النهر وقد أغرقت نفسها إيثاراً للغرق على الوقوع بين يد الصليبيين، فيهدأ قلبه ويحمد الله، وكانت صيحاته بابا من أبواب النصر على الإفرنج، وهذا الوزير الذى يقطع رأس الخليفة وكان غلاماً يافعاً ويحمل رأسه إلى الناس تهديداً ووعيداً وقد تقاذف الدم منها أمام الناظرين.

وإليك هذه الحادثة التى رواها وتكاد تفجعك يقول "اجتمع من بالشام من المسلمين لقصد كفر طاب وأنقذوا رجلاً من أصحابنا يقال له قنيب بن مالك، فجس لهم كفر طاب فى الليل، فوصلها داربها[1] وعاد، وقال ابشروا بالغنيمة والسلامة، فسار المسلمون إليهم فالتقوا على مثكير[2]، فنصر الله سبحانه الإسلام وقتلوا الإفرنج جميعهم، وكان قنيب الذى جس لهم كفر طاب قد رأى فى خندقها دوابا كثيرة. فلما ظفروا بالإفرنج وقتلوهم طمع فى أخذ تلك الدواب التى فى الخندق ورجا أن يفوز بالغنيمة وحده، فمضى يركض إلى الخندق فرمى عليه رجل من الإفرنج من الحصن حجراً فقتله، وكانت له عندما والدة عجوز كبيرة تندب فى مأتمنا ثم تندب ولدها، فكانت إذا

(١) يقصد ثم داربها.
(٢) موضع ببلاد الشام.

ندبت على ابنها قتيب يتدفق ثدياها باللبن حتى تغرق ثيابها، فإذا فرغت من ندبها عليه وسكنت لوعتها عادت ثدياها كالجلدتين ما فيهما قطرة لبن. فسبحان من أشرب القلوب الحنة على الأولاد"[1].

أما الفكاهة فتكاد السخرية تأخذ بلب القارئ من هؤلاء، حينما يروى أخبارهم، فهذا ابن ميمون ملك انطاكية الذى كان يهاجم شيزر من وقت لآخر، كانت أمه تسمى (بريكة) مملوكة لرجل كردى يعمل فى خدمة والد أسامة وكان يسمى على بن محبوب وكان متدينا لا يشرب خمرا، ويقول لوالد أسامة "والله يا أمير ما أستحل أكل من الديوان، ولا أكل إلا من كسب (بريكة) وهو الجاهل يظن أن ذلك السحت الحرام أحل من الديوان الذى هو مستأجر فيه"[2] ولما بُحث فى أمرها وُجدت تسترزق من السِّحر الذى كانت تعلم به بين المقابر، يقول أسامة عن هذه المرأة "وكانت هذه الأمة لها ولد اسمه نصر وكيلا فى ضيعة للوالد حدثنى قال: دخلت فى الليل إلى البلد أريد الدخول إلى دارى، فلما دنوت رأيت بين المقابر فى ضوء القمر شخصاً ما هو آدمى ولا هو وحشى فوقفت عنه وتهيبته، ثم قلت فى نفسى: ما أنا بقية ما هذا الخوف من واحد؟! فوضعت سيفى ودرقتى والحربة التى معى ومشيت قليلا وأنا أسمع لذلك الشخص زجلا وصوتا، فلما قربت منه وثبت عليه وفى يدى دشنى فقبضته وإذا بها (بريكة) مكشوفة الرأس قد نفشت شعرها وهى راكبة قصبة تصهل بين المقابر وتجول. قلت : ويحك أى شئ تعملين فى هذا الوقت هاهنا؟ قالت: أسحر. قلت قبحك الله وقبح سحرك"[3]. فيا لهذا الملك المغرور الذى تعمل أمه بالسحر ويا لهذا المتدين العابد الزاهد زوجها الذى يأكل سحتا من كسبها ويفضله على راتب الديوان.

---

(١) الاعتبار: ١٣٥، ١٣٦.
(٢) المرجع السابق: ١٤٣.
(٣) المرجع السابق: ١٤٤.

واقرأ معى هذه القصة التى يقصها ابن منقذ، لترى السخرية والعجب والضحك، وأنقلها بنصها ليتبين ما بها من سخف وخطل فى العقل وبلادة فى الشعور يقول مصوراً فقدان الإفرنج للغيرة الجنسية وأنهم لا عهد لهم بالنظافة "كان عندنا رجل حَمامى يقال له: سالم من أهل المعرة قال: فتحت حماماً فى المعرة أتعيش فيها فدخل إليها فارس من الإفرنج، وهم ينكرون على من يُشدُّ فى وسطه المئزر فى الحمام، فمد يده فجذب مئزرى من وسطى رماد، فرآنى وأنا قريب عهد بحلق عانتى، فقال: سالم! فتقربت منه فمد يده على عانتى وقال: سالم جيد وحق دينى! اعمل لى كذا، واستلقى على ظهره وله مثل لحيته فى ذلك الموضع. فحلقته، فقال: سالم بحق دينك اعمل للداما – والداما بلسانهم الست يعنى امرأته– وقال لغلام له: قل للداما تجئ، فمضى الغلام أحضرها وأدخلها فاستلقت على ظهرها وقال اعمل كما عملت لى، فحلقت ذلك الشعر وزوجها قاعد ينظرنى، فشكرنى ووهبنى حق خدمتى"(١)!!

فسيرته تنطوى على لحظات من السعادة ومقدار من الحزن، فالفرح والحزن لحظتان عابرتان فى الحياة، فالحياة تشعرك بأنك إذا ضحكت قد يكون بجوارك من يحزن، والضحك والحزن ليسا حالتين نفسيتين بل هما حالتان اجتماعيتان، والحياة تلغى المسافة بين المأساة والملهاة، فالإنسان يعيش حياته بين دموع ضاحكة أو ضحك تخالطه الدموع.

وثنائية الضحك والبكاء اتخذهما فى سيرته وسيلتين فى العمل الأدبى لضبط نفس القارئ، فعليه ألا يبالغ فى الفرح؛ لأنه يتلود حزن وإذا حزن ألا يكثر فقد يعقبه فرح.

(١) الاعتبار: ٢٥.

الأخبار والروايات الشعرية:

الأخبار والروايات الشعرية تأتى متفرقة فى صفحات الكتاب، وهى ترد بلا تكلف ولا تفصل بين الحادثة والأخرى، ولها وظيفة فنية ورمزية فى سرد السيرة.

ففى التحسر علي نفسه وأمسه، ووصف حاله بعد أن بلغ ذروة التسعين يقول[1]:

لم يبق طول العمر منى مُنَّةً ... ألقى بها صرف الزمان إذا اعتدى
ضعفت قواى وخاننى الثقتان من ... بصرى وسمعى حين شارفت المدى
وأدب فى كفى العصا وعهدنا ... فى الحرب تحمل أسمرا ومهندا

ويبدو أنه لم يهنأ بحياة الراحة والدعة ، وقد انقضت سريعا بينما كان فى شيزر يحارب الروم ويجندل الأبطال والأسود[2]:

قد كنت مسعر حرب كلما خمدت ... أذكيتها باقتداح البيض فى القلل
همى منازلة الأقران أحسبهم ... فرانس فهم منى على وجل
فصرت كالغادة المسكال:مضجعها ... على الحشايا وراء السجف والكلل

ويأتي ببعض الأخبار الأدبية والروايات الشعرية ليدعم بها الحوادث التى يرويها، وأحيانا تؤدى وظيفة الربط الفنى بين الحوادث، أو استفتاح لحادثة جديدة، وقد يكون الاستشهاد من شعره أو شعر غيره أو شعر غير منسوب لقائله:

فهو يتأسف لفراق الأمير معين الدين أمير دمشق، فبعد أن يحكى إحسانه إليه وحبه له يتأسف على مغادرة دمشق إلى مصر يقول[3] :

معين الدين كم لك طوق مَنٍّ ... بجيدى مثل أطواق الحمام
تعبدنى لك الإحسان طوعا ... وفى الإحسان رق للكرام

(١) الاعتبار: ١٧٩ لم ترد فى ديوانه.
(٢) المرجع السابق: ١٨٠ والأبيات فى ديوانه ص: ٣٠٥.
(٣) المرجع السابق: ٢٨ والأبيات فى ديوانه:٢٩٦،٢٧٠.

ويستشهد بأبيات لعنترة بن شداد على سلامة فارس يدعى (ابن زمام) من طعنة عظيمة، يقول[1]:

إن المنية لو تمثل مثلت ... مثلي إذا نزلوا بضنك المنزل
والخيل تعلم والفوارس أنني ... فرقت جمعهم بطعنة فيصل

ويذكر تمثل والده بهذا البيت الغير منسوب لقائله لما رأى أسامة يحضر أول قتال، وهان عليه الموت شاهد شجاعته ومخاطرته بنفسه[2]:

يفر جبان القوم عن أم رأسه ... ويحمى شجاع القوم من لا يلازمه

وهذه الحادثة التى يحكى فيها قصة الفارس (ميَّاح) وكان قد وخرج للقتال وهو لابس ثياب العرس، فطعنه فارس من الإفرنج فقتله، تذكر أسامة بهذا "الخبر عن النبى ﷺ وقد أنشد قول قيس بن الخطيم:

أجالدهم يوم الحفيظة حاسراً ... كأن يدى بالسيف مخراق لاعب

فقال النبى -ﷺ- للحاضرين من الأنصار رضى الله عنهم: هل حضر أحد منكم يوم الحديقة ؟ فقال رجل منهم: أنا حضرته، يا رسول الله وحضرد قيس بن الحظيم وهو قريب عهد بالعرس وعليه ملاءة حمراء فوالذى بعثك بالحق لقد عمل فى قتاله كما قال عن نفسه"[3].

ومن الأخبار الأدبية والتاريخيه التى يرويها متذكراً لها من باب الشئ الذى يذكر الشئ أنه لما طعن (سرهنك) الأفرنجى أحد فرسان المسلمين ويسمى جمعة، وكان صديقاً لأسامة، عزم جمعة على اللحاق بسرهنك وطعنه، فرد فرسه إلى الحرب حتى طعنه وقتله، ذكر أسامة هذا بفعله مالك بن الحارث الأشتر بأبى مسيكة الأيادى فى حروب الردة "وذلك أنه لما ارتدت العرب فى أيام أبى بكر الصديق،

(١) الاعتبار: ٦٠، ٦١ والأبيات فى ديوان عنترة ص: ١٦٠.
(٢) المرجع السابق: ٦٤.
(٣) المرجع السابق: ٧٢.

رضوان الله عليه. وعزم على قتالهم، جهز العساكر إلى قبائل العرب المرتدين، فكان أبو مسيكة الأيادى مع بنى حنيفة وكانو أشد العرب شوكة، وكان مالك ابن الأشتر فى جيش أبى بكر رحمه الله، فلما تواقفوا برز مالك بين الصفين وصاح: يا أبا مسيكة، فبرز له، فقال: ويحك يا أبا مسيكة بعد الإسلام وقراءة القرآن رجعت إلى الكفر؟ فقال: إياك عنى يا مالك إنهم يحرمون الخمر ولا صبر عنها قال: فهل لك فى المبارزة ؟ قال: نعم. فالتقيا بالرماح والتقيا بالسيوف فضربه أبو مسيكة فشق رأسه وشتر عينه وبتلك الضربة سمى الأشتر. فرجع وهو معتنق رقبة فرسه إلى رحله واجتمع له قوم من أهله وأصدقائه يبكون، فقال لأحدهم: أدخل يدك فى فمى، فأدخل إصبعه فى فمه فعضها مالك، فالتوى الرجل من الوجع، فقال مالك: لا بأس على صاحبكم. يقال: إذا سلمت الأضراس سلم الرأس، احشوها - يعنى الضربة - سويقا وشدوها بعمامة، فلما حشوها وشدوها قال: هاتوا فرسى، قالوا إلى أين ؟ قال: إلى أبى مسيكة فبزر بين الصفين، وصاح يا أبا مسكية، فخرج إليه مثل السهم، فضربه مالك بالسيف على كتفه فشقها إلى سرجه فقتله"[1].

وهو فى ذكر الأخبار القديمة يربط مشاهداته وحوادثه بها كأنه يقرر أن قتال المسلمين للكفار هو قتال متكرر حوادثه بصفته وهيئته فى كل عهد وزمن ما دام المسلمون على عقيدتهم الحقة لا يزعزها باطل.

(١) الاعتبار: ٦٠.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين.

وبعد:

ففى هذه الدراسة التى رصدت الفكر والفن فى السيرة الذاتية لابن منقذ فى كتاب الاعتبار، توصلت إلى أهم النتائج الآتية:

- اعتمد صاحب الاعتبار على مصادر عديدة فى سيرته الذاتية منها: تجاربه الشخصية، وتجارب الآخرين، والمشاهدات والأسفار، والثقافة العربية الجاهلية فى بروز روح الفروسية التى تأثر بها، واهتمامه بسرد المغامرات الحربية والطرديات على سنة الجاهلين التى رسخت فيهم هذه الروح، والثقافة الإسلامية وتتبين فى الآيات القرآنية التى أوردها، وأحاديثه عن الصحابة والصالحين، وتتجلى المبادئ الإسلامية فى عدة مقومات مثل: محاسبة النفس، والتقوى، والتحدث بفضل ونعمة الله والنظر إلى الأحداث الصعبة الخطيرة على أنها اختبار وابتلاء ومنة من الله تبارك وتعالى.
- تعد سيرته طريقاً للتعرف على آرائه وطريقته فى التفكير.
- تضم سيرته سلوكيات وأخلاقيات إسلامية للفارس العربى النبيل يجب الاقتداء بها.
- تضم قدوة صالحة، ومواقف للاعتبار والعظة نتعلم منها العبرة والدروس النافعة فى: الصبر، والحكمة، والتواضع، والعفو. والفداء، والشجاعة، والاعتراف بالتقصير والأخطاء، مما يجعلها أنموذجاً إنسانياً يحتذى.

- حفظت أخباراً متعددة ومهمة عن حياته، وحياة الأفراد والمجتمع فى هذه الحقبة، فهى تأريخ اجتماعى يُرجع إليه عن المجتمعات الإنسانية وصراعها.

- تتميز بالوقوف على جوانب كثيرة سياسية وحربية واجتماعية وثقافية للفترة التى عاشها.

- تبنى الترجمة على عملية التذكر، وهى ليست أمراً سهلاً، بل هى أكثر تعقيداً؛ فالذاكرة لا شك فى أنها يعتيرها النسيان، ويمكن التسليم بأن ذاكرته قد سقط منها بعض الأحداث خاصة فيما يتعلق بطفولته.

ومن المسلم به أن أى كاتب سيرة ذاتية يعلن عما يشاء. ويحجب عن قارئه ما يشاء من الأمور التى يرى أنها لا ينبغى البوح بها، وإذا كاتب السيرة لا يعلن صاحبها إلا بما يرضى عنه، ويعجب الآخرين، فإن إسامة لم يفعل ذلك، فقد سجل لحظات الانكسار والضعف والهزائم لديه.

- اختفاء علاقة الحب فى سيرته – على الرغم مما فى ديوانه من شعر الغزل وما فى كتابه (المنازل والديار) من وجدان وعاطفة – لا يدل على أنه لم يذق الحب أو لم يكابده، بل يدل على تحرج الرجل فى شيخوخته من ذكر شئ من ذلك بعد أن أخذ على نفسه أسلوب الجد والوقار.

وانصرافه عن المجال الوجدانى يؤكد أن البواعث الكامنة وراء كتابة سيرته هى الرغبة فى تقديم سيرة اعتبارية لا تقديم شخصية دقيقة له، ويؤكد ذلك أنك لا تجد شيئاً عن أبنائه وزوجه, ولعل ضياع جزء من مخطوط الكتاب من الممكن أن يكون كتب فيه ما يشير إلى ذلك ولكنه فُقد – والله أعلم –.

- اختيار اسم (الاعتبار) من مؤلفه يدل على الاهتمام بالجانب الاعتبارى على المستوى التاريخى والسياسى والعسكرى والاجتماعى والفكرى والأدبى، والفردى الشخصى.
- بمراجعة أعمال ابن منقذ الإبداعية خاصة ديوانه تتضح سمة التطابق بين شخصيته وما سرده من أخبار وحوادث، ولينظر القارئ أبواباً متعددة من ديوانه مثل قصائده فى الملك الصالح بن رزيك وقصيدته عند الخروج من مصر مع الأفضل عباس الصنهاجى وزير الظافر الفاطمى، وهو الذى اتهم ولده نصر بقتل الخليفة، فهربا من مصر وصحبهما فى خروجهما أسامة، وشعر وهو بمدينة حلب، وقد وصله إليها بعض أصحابه، وأخبره أن من كان بمصر من الأهل والأولاد وصلوا، وأن المركب انكسر بهم فى ساحل عكا ونهب الإفرنج كل ما فيه، ولم يصلوا إلى دمشق إلا بأنفسهم، ومديحه لأمير دمشق معين الدين أنر.
- الأحداث التى دونها فى سيرته كانت صحيحة واتفقت مع الأحداث التى ذكرها من كتبَ عنه مثل ياقوت الحموى، ومن كتب عن الحروب الصليبية.

كذلك الكتابات التى كُتبت عنه عند الكُتاب المعاصرين مثل الدكتور شوقى ضيف.

- صاغ سيرته صياغة فنية ارتقت بها إلى الأسلوب الأدبى الفنى الذى يجذب القارئ.
- اجتمع فى سيرته جانباً الأمانة والصدق فكان أميناً صادقاً فى تصوير حياته والحوادث التى ألمت به.
- اجتمع فى سيرته جانباً الإشراق والإظلام فى حياته، فبعدت عن الزيف ففيها تسجيل لمواقف القوة والضعف، والقارئ حينما يلمس ذلك يدرك أنه لا يخدعه.

- لم يجنح بخياله فى كتابة سيرته إلا قليلاً، ولم يبالغ فيه، بل اقترب من عنصر التفسير والتشويق.

- اتسم أسامة فى سيرته بالإنصاف والتواضع فلم يظهر نفسه فى شكل الفارسى الأسطورى الذى يقول: أنا فعلت وفعلت وغامرت وقاتلت، بل كان معتداً بنفسه فى مواقف الاعتداد مبيناً الكثير من زلاته وعيوبه.

- لم يكن عاشقاً لذاته أو محباً لها إلى درجة الإفراط فلم يركز على ذاته فى كل شئ ذكره بل ركز على الأحداث التى لحقت به وبغيره من الأشخاص من الصغار والكبار، وعلى أحداث مجتمعه وعصره وبيئته، فأحدث نوعاً من التوافق والتوازن بين ذاته والآخرين.

- لم ينقل كل كبيرة أو صغيرة حدثت له فى حياته فبعد عن مأخذ الإملال الذى يعترى القارئ.

- سيرته مرجع مهم وضروى فى التعرف على حياته وحفظ أخباره، وعصره ومن الضرورى الرجوع إليها عند الوقوف على سيرته وحياته، وقد احتفظت بالكثير من مظاهر الحياة العامة فى عصره، ولولا تدوينها لضاعت.

- لولا حرصه على كتابة الحوادث والأخبار لضاع الكثير منها، وتتم هذه الأخبار أخباراً أخرى فى بعض المصادر وتعطى صورة كاملة لحادثة ما أو خبر ما يهم الكتاب والمؤرخين.

- تحتفظ سيرته بالكثير من الأفكار والمعارف والمعلومات لا يمكن الاستغناء عنها فى معرفة طبائع البشر والحيوان والطير مما يجعلها مصادراً ثانوية فى هذه الأبواب، وتنم عن مرحلة من مراحل تطور هذه المعارف والمعلومات.

- قدم ابن منقذ شخصيته من الداخل إلى الخارج، بمعنى أنه كان يقدم أثر الأحداث عليه ثم يرويها، وبذلك تحقق فيها أحد شروط السيرة الذاتية الجيدة.

- تعامل فيما رواه من أخبار وروايات بعطف وحنو، فكان رقيق المشاعر حانياً رفيقاً على الأشخاص الذين قصَّ لهم حوادث وتأثر بهم.

- سيرته تأخذ شكل الوثيقة التى لا يمكن تجريحها أو الحذف منها؛ لأنه رواها عن طريق سرد الماضى.

- تحقق فيها عنصر الجذب والتشويق، حتى إن القارئ ليتم قراءتها عندما يشرع فيها.

- ابتعد فى سيرته عن التاريخ ومنهجه وطريقته، فقد تجاوزه فى الأحداث التى رواها واتجه بها إلى نفسه كإنسان يتأثر بها ويصور ما عاناه من تجارب وصراعات، وركز على شخصه فكان محور الحديث وجعل الأشخاص الآخرين يدورون حوله، وحقق فى سيرته بهذا أحد شروطها وهو أن تدور حول مؤلفها، وجعل منهجه قائماً على التذكر فى استرجاع الماضى وصياغته صياغة أدبية.

- وضح أسامة أن أثر الصليبيين فى المجتمع العربى كان ضئيلا جدا بينما كان أثر المجتمع العربى فيهم عظيماً، وأبان عن الفروق الجوهرية فى المبادئ والقيم بين الحضارتين العربية والإفرنجية.

- قدم نماذج بشرية للتربية والنشأة العربية السليمة يمكن الاحتذاء بها، فقدم الأب والأم وأبطال العرب والمسلمين رجالاً ونساء فى أشرق وأنصع صورهم.

- تأخذ سيرته ملامح الرواية الحديثة من حيث إجادة السرد، والتشويق، ومتعة القص، وبراعة الحوار، وأن الشخصية الرئيسة التى تدور حولها الأحداث واحدة هى شخصية السارد أو صاحب السيرة.

- ابتعد عن أسلوب الغموض والفلسفة والأحداث التى تعسى على القارئ، فكان واضحاً فى مضمونه متسماً بالدقة فى الأسلوب، وإن شابه الكثير من العامى والدارج وعدم الربط الجيد بين الفقرات والجمل.

- الزمان والمكان فى سيرته كانا مقيدين حيث تعامل معهما بوضوح، فتكلم عن الزمن الذى عاشه، والأماكن التى انتقل إليها. ولم يتجاوزهما إلى غيرهما.

- نهاية سيرته كانت واضحة غير مجهولة، وقف بها عند نقطة كان يعيش فيها.

- تحققت فى سيرة ابن منقذ الكثير من الخصائص الفنية والمقومات التى وضعها النقد الأدبى الحديث للسيرة الذاتية. مما يجعلها قريبة من السيرة الذاتية الحديثة، وتحقق فيها المفهوم الفنى للسيرة. من هذه الخصائص: فنية الأسلوب القصصى والروائى، الحوار، الشخصيات وتصوير نفسياتها، الصراع، الصدق الفنى، روح الحياد والإنصاف، وحدة الموضوع، الوحدة والترابط الفنى بين أجزاء السيرة، والانتقاء، وقوة التصوير للأحداث ونقلها نقلا أمينا.

- وإذا كانت السيرة الذاتية الحديثة أكثر تطوراً ووضوحاً؛ لقياسها على منهجية واضحة، فإنه ينبغى أن نقيس سيرة ابن منقذ فى

الاعتبار بزمنها وعصرها – السادس الهجرى – لا بمقاييس (الأيام) لطه حسين، و (حياتى) لأحمد أمين.

- إن معالم الأحداث التى رواها ابن منقذ فى ذلك العهد عن غزو الإفرنج لبلاد الشام، وتفكك بعض الإمارات وثبات الأخرى، والخوف من القتال والموت، تتشابه مع تلك الأحداث التى مرت بالعالم العربى فى العصر الحديث، فى الأهداف والبواعث والغايات. أليس يدعو ذلك إلى الاعتبار والعظة كما نبه ابن منقذ – رحمه الله –؟!

والحمد لله فى الأولى والآخرة.

المراجع

- القرآن الكريم
١- أدب السيرة الذاتية د/ عبد العزيز شرف - طبعة مكتبة لبنان - الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان - مصر ١٩٩٢م.
٢- الأدب فى بلاد الشام - عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك د/عمر موسى باشا - طبعة دار الفكر المعاصر - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
٣- الاعتبار - أسامة بن مرشد بن منقذ - تحقيق وتقديم د/ قاسم السامرائى - طبعة دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام بالرياض - الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
٤- الأعلام - خير الدين الزركلى - طبعة دار العلم للملايين - بيروت - لبنان - الطبعة الخامسة - ١٩٨٠م.
٥- البداية والنهاية - الحافظ عماد الدين أبى الفداء إسماعيل ابن كثير - تحقيق د/ عبد الله عبد المحسن التركى - طبعة دار هجر للطباعة والنشر - الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
٦- بلاغة الخطاب وعلم النص د/ صلاح فضل - طبعة الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان - الطبعة الأولى ١٩٩٦م.
٧- بناء الرواية - دراسة فى الرواية المصرية د/ عبد الفتاح عثمان - طبعة مكتبة الشباب - بدون تاريخ.
٨- بناء الرواية دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ - سيزا قاسم - طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٤م.
٩- بنية الشكل الروائى د/ حسن بحراوى - طبعة المركز الثقافى العربى - بيروت ١٩٩٠م.
١٠- تاريخ الأدب العرب من مطلع القرن الخامس الهجرى إلى الفتح العثمانى - عمر فروخ - طبعة دار العلم للملايين - بيروت - ١٣٩٢م - ١٩٧٢م.
١١- التراجم الذاتية - محمد عبد الغنى حسن - سلسلة فنون الأدب العربى - الفن القصصى - طبعة دار المعارف - الطبعة الثالثة - ١٩٨٠م.
١٢- الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث - يحى إبراهيم عبد الدايم - طبعة مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٧٥م.

١٣- الترجمة الشخصية د/ شوقى ضيف – سلسلة فنون الأدب العربى – دار المعارف – الطبعة الخامسة ١٩٨٥م.
١٤- جماليات المكان – غاستون باشلار – ترجمة غالب هلسا – طبعة المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر – الطبعة الثانية ١٩٨٤م.
١٥- دلالة المكان فى قصيدة النثر د/ عبد الإله الصائغ – طبعة دار الأهالى – دمشق – بدون تاريخ.
١٦- ديوان أسامة بن منقذ تحقيق د/ أحمد أحمد بدوى – طبعة القاهرة ١٩٥٣م.
١٧- ديوان عنترة بن شداد – طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب – سلسلة القراءة للجميع –٢٠٠١م.
١٨- عصر الدول والإمارات – مصر والشام د/ شوقى ضيف – طبعة دار المعارف بمصر ١٩٨٤م.
١٩- عندما تتكلم الذات– السيرة الذاتية فى الأدب العربى الحديث د/محمد الباردى – منشورات اتحاد الكتاب العربى – دمشق ٢٠٠٥م.
٢٠- فن السيرة د/ إحسان عباس – دار صادر – بيروت – الطبعة الأولى ١٩٩٦م.
٢١- فى نظرية الرواية – بحث فى تقنيات السرد – د/ عبد الملك مرتاض – سلسلة عالم المعرفة – المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب – الكويت – الطبعة الأولى – ديسمبر ١٩٩٨م.
٢٢- لباب الآداب – أسامة بن منقذ – طبعة دار الكتب العلمية – ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م.
٢٣- لسان العرب – ابن منظور – طبعة دار المعارف بمصر – بدون تاريخ.
٢٤- المعجم الأدبى – جبور عبد النور – طبعة دار العلم للملايين – لبنان الطبعة الثانية – ١٩٨٤م.
٢٥- النثر العربى فى نماذجه وتطوره لعصرى النهضة والحديث د/ على شلش – طبعة دار العلم – بيروت – الطبعة الثانية – ١٩٧٤م.
٢٦- نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة د/ نبيلة إبراهيم – طبعة نادى الرياض الأدبى – ١٤٠٠هـ.